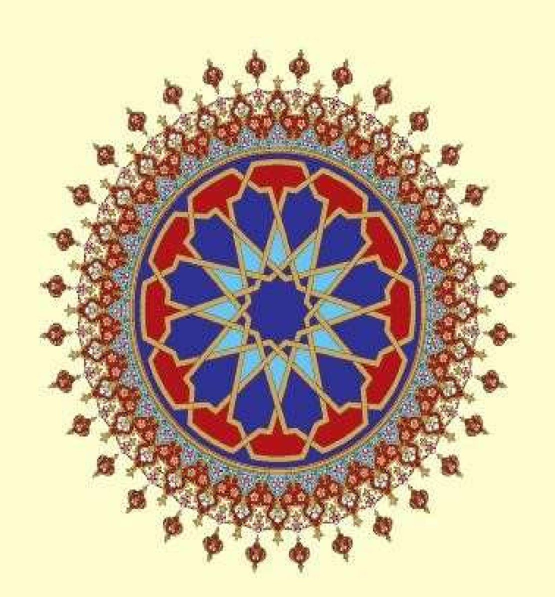



صورٌ ملونة من وحي الأزمنة وإلهام الأمكنة



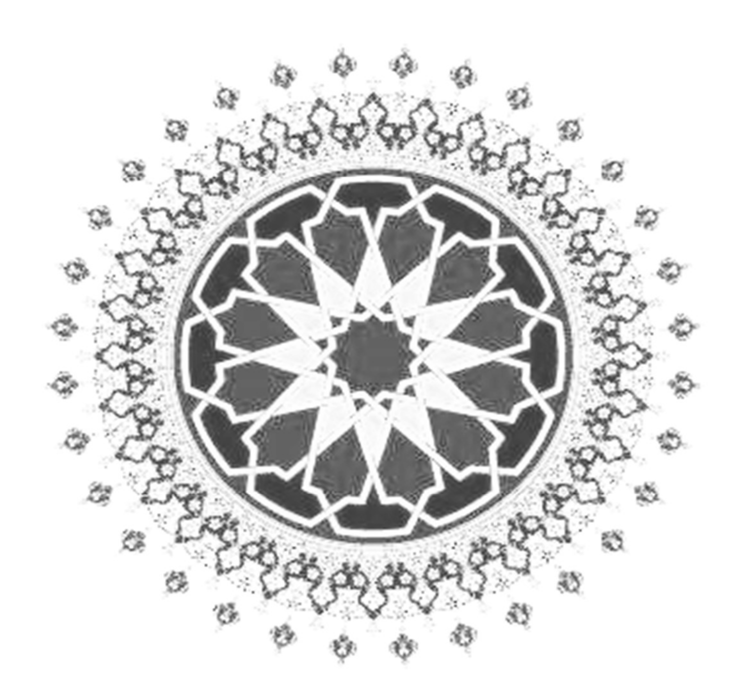



# التوابل الشريفة




صورٌ ملونة من وحى الأزمنة وإلهام الأمكنة

محمد جمعة



دار كليوباترا للنشر والتوزيع

--------------------------------

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جمعة, محمد

التوابل الشريفة : قصص قصيرة/ محمد جمعة

ط1. / القاهرة : دار كليوباترا للنشر والتوزيع.

ص 162، المقاس 14*20

الترقيم الدولى : 978-977-6619-48-7

رقم الإيداع: 2017/26327

تصنيف الكتاب :

القصص العربية القصيرة



الناشر دار كليوباترا للنشر والتوزيع

إشراف عام: عفاف محمد على　　　المدير التنفيذي: ضحى جبر

تصميم الغلاف : محمد هادى

عمليات الإخراج الداخلى والتصحيح اللغوي

(دار كليوباترا للنشر والتوزيع)

المراسلات:

لإتصال: / 01019983371/ 0225244534/ 01125574129

dar.cleopatra@gmail.com

الطبعة الأولى

# المحتوى

مُجَمَّعُ الجَلَاْءِ ____ 8
عمارة الحرية -الدور الرابع -شقة 6 ____ 26
بَيْتُ المُحَامِي ____ 35
شُبَّاْك الْهَوَىْ ____ 51
سَكْرَة يَنّي ____ 59
كافيتريا صَاْق ____ 80
التّوابل الشّريفة ____ 86
نسَب السَّعْد ____ 116
أُمُّ سِرَاج ____ 124
202 ____ 139
كرة وراء ____ 168
صوالج الأفلاك ____ 168
سِـدْرَةُ المُبْتــدَأْ ____ 182
لفتةٌ إثر قراءة ____ 196

# مُجَمَّعُ الجَلَاْءِ

مُتتالية موسيقيّة رُباعيّة الحركات

(مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلىْ بِذْرِ طَمَع)

ابن عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ

# حَرَكَةٌ أُوْلَىْ - متوسطة السّرعة

مَنْ يدري، وَمَنْ يُعِيرُ اهتمامًا لكي يَدْرِي ما وراء ذلك البناء الضخم الذي تعددت أسماؤه عبر السنين -فَمِنْ مُجَمَّعِ المصالح الحكومية إلى مُجَمَّعِ الجلاء فانتهاء بمُجَمَّعِ التحرير كانتسابٍ للميدان الواقع عليه والذي تعددت أسماؤه هو الآخر معه من الإسماعيلية نسبة للخديوي إسماعيل فالجلاء فالتحرير والذي لا يزال عهد الناس به وإن كان قد تغيّر مرةً أخرى فَنُسِبَ بآخِرَةٍ للرئيس السادات.

بينما كان عثمان مُحَرَّم وزيرًا للأشغال في وزارة النحاس الأخيرة فقد زيدت مطالبته بإنشاء مكاتب حكومية للمصالح الخدميّة فرأى الرجل أن يستغل الأرض الفضاء الواقعة على ميدان الإسماعيلية لذلك الغرض بدلًا من أن يبني مكتبًا منفصلًا لكل مصلحة على حدة، فكلف المعماري الفذ كمال إسماعيل مدير مصلحة المباني الأميرية وقتها، قائلًا له: "اشغل لي هذه الأرض،

وابنها من عشرة إلى أحد عشر طابقًا" فقام الرجل بما كُلِّف به وأوفى عليه فتطاول في البنيان ثلاثة طوابق أخرى حتى بلغ الرابع عشر.

كان كمال بك إسماعيل يملك ثقافةً متضافرة الروافد ... معقدة المصادر والموارد ... متشابكة المنابت، استقاها من مدارس معماريّةٍ متعدّدةٍ؛ فالرجل مصري .. ولد ونشأ بميت غمر، ونما بالإسكندرية ثم استوى على سوقه بالقاهرة وينع بفرنسا. فاختلاف مشاربه أكسبه روحًا لها رحيق مختلفٌ شرابه، فلما عُهد إليه ببناءِ ذلك المبنى أراد أن يمزجه بمزاج رحيقه المختلِف الشراب فاتخذ من عمارته الإسلامية معينًا فاستعمل الأقواس والأعمدة والزخارف، واستعان بالأفنية الداخلية وما تحتويه من سلالم ومراقٍ، واستدعى مدارسه المعمارية الأخرى فابتنى المبنى وأكمله فيما يقرب من عام واحد فتم له في 1951 وجعله على شكل قوس كما جعل له فناءً داخليًّا كالقصور العربية القديمة، ومن تقوّس المبنى تقوَّس له شكل الميدان فانحنى لانحنائه، وتقوَّس بتقوّسه، وانسحب ذلك بدوره على ما تفرع حوله من دروب وطرقات.

*************

## حركة مُثَنَّاة -بطيئة وغنائية

تُرى من يَدْرِي ذلك الآن أو من يملك وقتًا في تلك الحياة التي قَلَّت بَرَكَةُ الوقت فيها أو من يحاول أن يُكَلِّفَ نفسه بعضًا من جهد لكي يعرفَ ذلك أو بعضًا من ذلك في خِضَمِّ عيش مُتَلاطم يسعى كلُّ ساعٍ فيه إلى كَفَافِ عيشه، حتى إنني أزعم أن سالم باشا وهو الرجل الأحق بأن يعرف؛ أراه قد لا يعرف، اللهم إلا ما عرفه من قيمة المبنى وأهميته حينما ضج حول المبنى ضجيج الإخلاء والبيع منذ عدة سنوات.

سالم باشا ذلك الرجل الأَشَقّ الأَمَقّ الواقف هنالك أعلى المبنى كعادته صبيحة كل يوم يُطِلُّ من نافذة مكتبه الفخم على ميدان التحرير، لقد سَنَّ لنفسه تلك السُّنَّة ، واعتاد لبدء يومه تلك العادة بينما يَرْشُفُ رَشَفَاتٍ مُقْتَضَبَةً يُطِيْلُ بها زَمَنَ احتساء فنجان القهوة وهو يلقي بعينيه يقلّبهما في أطراف الميدان يتابع حركته الفائرة الثائرة، والتي لا تزال على نشاطها وفورتها وقت إسراع

الناس إلى أعمالهم قبل أن يدب في تلك الحركة دبيب وقت زوال الشمس عن وسط السماء يرتفع معها الإذن بدخول وقت الظهر فإذا ما صدح مؤذن مسجد عمر مكرم المجاور أخذت حركة الميدان سِنَةٌ فتهدأ فَوْرَتُها وكأنما يأخذ الميدان في راحة القيلولة بعد التعب.

ومن متابعتي لعادة الرجل ومراقبتي لمزاجه اليوميّ خلال تلك الوقفة اليومية أراه في أيامه الأخيرة قد فارقه انشراحه ونشاطه وصار مهمومًا شاردًا حتى لكأنه ينسى رشف فنجانه وحينما يذكره يرتشفه فيجده باردًا فيضعه متبرمًا متململًا، وكأني به يحدث فنجانه : حتى أنت صرت باردًا، أم أنا الذي صرت باردًا فتجمدت خلاياي فصرت لا أشعر ببرودة البارد ولا بسخونة الساخن. تُرى ما الذي غيره بآخرةٍ فصار يقف كالمنكسر الحزين شاردًا مشدوهًا لا يجد لعينيه ملفتًا عن موضع الميدان. إن من يعرف الرجل عن قرب ويعهده عن كثب يعلم مدى عدم إيمانه بعالم ما وراء الطبيعة وأثرها في حياتنا فلا يعير للأحلام همًّا ولا اهتمامًا ولا يعتقد في فأل ولا طيرة فما عوَّدته الدنيا بقسوتها عليه أن يعتقد في غير منفعة ولا مصلحة، إلا أنه يبدو أن عالم الأحلام قد وجد لديه ثغرة أو مدّخلًا ولج إلى قلبه قبل عقله، والولوج من خلال القلب يورث الانشغال بالانشراح أو الغم. لقد رأى الرجل فيما يرى النائم أنه بينما يقف وقفته تلك صباح كل يوم يرقب الميدان وإذ به يجد أرض الميدان تهبط هبوطًا حادًا مفاجئًا مدويًّا ويتحول الميدان في طرفة عين إلى هوة كبيرة. وما إن استيقظ الرجل كعادته حتى اعتبر ما قد رآه – وإن أزعجه – كابوسًا ثقل

عليه لثقل عشاء الليلة الفائتة أو ضغثًا من الأحلام، والأحلام عنده كلها أضغاث.

يومًا بعد يوم والحلم يعاوده فيتكرر وهو لا يبالي فدائمًا ما يكون العشاء غير خفيف، حتى تطور الحلم فزاد مشهده أبعادًا مُجَسَّمة فبدلًا من أن يكون الميدان هوة سحيقة بلون الأرض هذه المرة صارت تلك الهوة سوداء فقد تراكمت فيها كمية هائلة من (التكاتك) تلك الدويبة السوداء القبيحة القميئة، تراكمت بعضها فوق بعض.

وفي ليلةٍ أخرى كانت ثالثة الأثافي استحالت الهوّة السحيقة إلى سواد حالك يتميّز ويتموج كغرابيب سود؛ فالهوّة قد غطيت هذه المرة بغربان كثيرة. عند تلك الرؤيا أخذ سالم في الانزعاج بل أخذه الانزعاج أخذًا عزيزًا فقد استدعت تلك الرؤية مكنون اللاوعي عنده من ذكريات القرية وعاداتها ومعتقداتها فقد اعتادوا في القرية أن يحصبوا الغربان بالحصى ما إن يروها، ومن يصطد من فتيان القرية منها غرابًا يجد عند القوم إشادة وثناءً لأنها كانت عندهم نذير شؤم وهم وفقر وغم. صار الحلم عادةً مستعادة ينتظرها الرجل حينما يستقبل سواد يومه انتظار المذنب لعقابه متفكرًا فيما سيطرأ عليه في كل ليلة من ألوان العذاب وما سيستجد عليه من صور العقاب. ويبدو على الانشاح بالسواد ففي إحدى الليالي امتلأت الهوّة بدلًا من الغربان بالتكاتك تلك المركبات السوداء القبيحة التي تجلب معها كل ألوان العشوائية والفوضى،

وتمثل كل صور التفلُّت، وتجسِّم كل معاني الانفلات. رأى أكوامًا من التكاتك مهيلة بعضها فوق بعض.

صار ذلك الحلم مسلسلًا يوميًّا متتابعًا متتاليًا متكررًا كلما أوى سالم إلى فراشه ليلًا، بل صار معه حقيقة يومية متكررة يراها نهارًا كلما أخذ وقفته مشرفًا من نافذته على الميدان، وكلما مر الوقت ينتظر الرجل شؤمًا وهمًّا، ويستعد كي يستقبل فقرًا وغمًّا ليس لهما حد فلا يجد، لا يصل إليه ما ينتظره ويستعد له فيريحه من انتظار السيئ، ولا يرحمه فيدعه لا منامًا ولا يقظة. دفعه الاستغراق في الأمر والتفكر فيه إلى أن يراجع حياته لعله يجد لتلك العقبى سببًا.

دخل الساعي بفنجان قهوة جديد فتركه وخرج، أخذ سالم فنجان القهوة رافعًا إياه لمرشفه فوقعت عيناه على شهادة التقدير الوحيدة التي يفتخر بها في قرارة نفسه يوم أن كرمته الثورة في يوم الجلاء. رفع عينيه وهاتف من داخله يردد :

- من ذا الذي يصدق ذلك ؟ أهذا هو سالم عبَّادي القرويّ الفتيّ خِرِّيج مدرسة البوليس المصري، أهذا هو الملازم الفدائي المتتلمذ على البكباشي شريف العبد ضابط الاتصال بمعركة الإسماعيلية شرف البوليس المصري الحديث ويوم عيده ، أهذا هو الملازم الفدائي الذي ناضل وقاتل فرزقه الله النجاة حتى يومه هذا.

ودفعته الذكرى لأبعد من ذلك شيئًا فشيئًا حتى رأى نفسه فتى يتيمًا في إحدى قرى المنيا، وقد التمس فيه أحد ذوي اليسار انضباطًا والتزامًا ومثابرة حينما كان ينتظم نفرًا بين أنفاره فجعله تحت عينه ورقبته فوجده ذا همة وعزيمة وتسمع بعض حديثه فوجده غير رفقائه والتمس حكايته من رجاله فقصوها عليه فتلقفه ليتكفل به لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، عسى أن ينفع الله به فيكون أمانًا للرجل عند ربه. واستطاع سالم عبادي أن ينتظم في سلك المدارس الأميرية شيئًا فشيئًا، وكان يتقمص روح القطار الذي يشاهده يوميًّا في بلدته، ويلتمس بخاره روحًا له، ويتمنى لو أن ركبه، إلا أن وقت ركوبه لم يحن له بعد، كان يتأمله كيف يسير بقلب من حديد على قضبان من حديد لا يفارقها ولا يختل اتزانه ولا تضعف قواه من أثر الركض الذي يركضه بياض يومه وسواد ليله بل يمتلئ جوفه بالفحم والنار ولا ينفث منها إلا دخانًا ينفِّث به عن نفسه من أثر الجهد والمشقة ولا يلتقط أنفاسه إلا حينما يقف دقائقه المعدودات عند كل رصيف من أرصفة المحطات المرسومة له الوقوف بها وإلا فهناك الكثير غيرها ولا يتطلب وصوله لمصر في ميقاته المحدد له أن يضيِّع من زمن رحلته وقتًا بالوقوف فيها كما كان من يقف فيها من الناس ليسوا أهلًا لأن يعبأ بهم فهم لا يملكون أجرة ركوبه. إذن فليكن سالم قطارًا يتقن الكر والركض فلا ينازعه في السبق أحد، ليكن سالم قطارًا لا ينظر إلا إلى صوب محطته الأخيرة، ليكن سالم قطارًا فلا يلتقط أنفاسه إلا عند المحطات المرسومة في

سبيله ولا يعبآن بها كثيرًا فلن يدوم وقوفه بها كثيرًا كما أنه لا يعبأ بتلك الوجوه التي يراها بها فهو لن يقف لها أيضًا كثيرًا.

فليكن سالم قطارًا فلا يعبأن القطار بما حوله أو بمن حوله، وكيف يعبأ جسد من حديد أسود وقلب من حديد أسود لا ينبض إلا عن مكنون ملؤه فحم أسود يتقد جمرًا أحمر ليتولد منه بخار يكتمه فلا يخرج إلا حركة يطوي بها الأرض بساطًا كطي السجل للكتاب، ويفري بها الوادي فريًا ويقطع بها زمام الناحية كالموسى أو ويقصها قميصًا نصفين، إن استقبلت سبيله ووجهته وجدته، وكأنه يتعقب نقطة الأفق فتفر منه فلا ينفك في تعقبها والجري خلفها فلا يدركها أبدًا، أو كمن يجر جرَّارة ثوب كي يبدي مفاتنه، وإن استبد به الإعياء نفث عن نفسه نفثات المصدور، وزفر زفرات المحزون، وتأوه تأوّهات الموجوع المكلوم.

اختلط صفير القطار في أذن سالم بصرير الباب حينما دخل الساعي بفنجان قهوة ثالث وهو متعجب فقد غير الباشا عاداته ومواعيد حسو قهوته مما أثار قلق الساعي عليه فلربما يشغله شاغل، أو يؤرقه مؤرق. أدرك سالم قلق الساعي وتلكؤه في الخروج حتى يعطيه سالم فرصة الاستفسار إلا أنه لحظه بطرف عينه وأدار رأسه مرة أخرى حتى لا يعطيه تلك الفرصة فهو منشغل عنه بنفسه. خرج الساعي وأغلق الباب خلفه بهدوء فأعاد صرير الباب مرة أخرى صفير القطار متصلًا في أذني سالم ليعود لما كان فيه، ولكنه عاد تلك المرة راكبًا القطار لأول مرة في بزة مدرسة البوليس واضعًا ساقه اليمنى تحت

اليسرى أمارة البكوية والأبهة ذاهبًا إلى مصر في طريقه للانتظام في سلك الدراسة.

لا ينسى سالم ذلك اليوم - ما حيي - فقد كاد من فرط فرحته أن يخرج من إهابه، ولكنه لا يخرج من بزته فهي سر سعادته، وقد ظهرت تلك السعادة لصديقه سعد طالب الحقوق وانفرط الكلام بينهما طويلًا عن مصر وأهلها وسبل العيش فيه، وبدا لسعد مدى طماح سالم وطماعيته المفرطة وسعيه للوصول – كما يحلو له التعبير – وأخذ سالم يرسم أمام صديقه بريشة الخيال وهو ناظر أمامه كأنما يرسم على الأفق مستقبلًا يراه هو وحده، وأخذ يتحدث عن السلطة واللعب في السياسة واللعب بها ؛ فأثار ذلك الطموح المخيف خوف صديقه عليه فقال له سعد ناصحًا :

- يا صاحِ، إن السياسة نجسة وأنا أعرف طماحك وشدته، ولكن حذار من أن يأخذك فلا تستطيع معه عودة ولا إيابًا حيث تتعلم التنازل وتتقن التبرير وتستسهل الخطأ، وتعمى عيناك فلا ترى غير نفسك، السلطة قذرة من اقترب منها تضمخ بنجاستها، واعلم أنه كلما استطالت قامة الرجل في السلطة كلما استطالت وشحذت معه شوكته فتظل شوكته تستطيل وتشحذ شيئًا فشيئًا حتى يصير كسرها سهلًا يسيرًا عندها تندق عنقه ويلقى به خارج الدائرة، إن الطامعين في السلطة كالإلكترونات يدورون حول نواتها تحملهم حِمْيَة الطموح وحَمِيّةً الطمع فتدفعهم هاتان الطاقتان لأن يرقوا ويرتقوا دارة

فدارة ومدارًا فمدار حتى إذا اقتربوا من النواة احترقوا ولم يخترقوا، ومن أدركته النجاة خمدت ناره وطاقته فيعود أدراجه أو أدنى مما كان.

**************

## حركة مثلثة -سريعة دون إسراف

كوفئ سالم عبَّادي على إخلاصه في عمله، وعلى طاعته لرؤسائه، وعلى ظاهرية قناعة طماحه بأن عُيِّنَ مديرًا إداريًّا عامًا لمبنى المجمع عامة بما فيه من قطاعات عامة للحكومة المصرية وإداراتها الخدمية المختلفة فكان يرى ذلك تحقيقًا لأحلامه إذ غدا، وكأنه حاكمٌ للقطر المصري، أو ليس المجمع هو النموذج المصغر للدولة المصرية بكافة وزاراتها وهيآتها، أو ليس المجمع هو مركز الخدمات الحكومية في قلب العاصمة، أو ليس الرجل جالسًا على رأس ذلك المجمع في قمته حاكمًا بأمره فيه، إذن فقد نال بعد صبر، وظفر بعد نصر، وحقق حلمًا كان يداعب خياله في قريته، يناديه وهو ناعس في القطار يستعجل الوصول إلى القاهرة، ويناجيه وهو ساهر ساهد يستذكر دروسه، ويناغيه وهو خاملٌ خامد يبني قصورًا من بوص وقبابًا من قش.

تربّع الرجل على عرش المجمع فحاول أن يجتهد فيما أسند إليه باستنهاض همته في استثمار أفكار سريعة ذكية تلمع للعيان وتلتمع في العيون فقام بإعادة النظر في توزيع الطوابق والمكاتب والحجرات على الخدمات الحكومية المختلفة، ونظّم حركة المصاعد فقاسمها بين الطوابق فرديها وزوجها بما ييسر على مرتادي المجمع، وقام بتفعيل خدمة ترقيم أدوار لتنظيم حركة وانتظار الجمهور، وقام باستغلال الأرض الواقعة أمام المجمع فحوّلها إلى ساحة انتظار للمركبات مستغلًا ازدحام الميدان في التخفيف عنه، والإعلان عن نفسه بحله لأزمة وتحقيقه لعائد؛ فشارك في جعل الساحة للعامة. أخلص الرجل في تنفيذ ما فكر فيه فنال تقديرًا من مرتادي المجمع، وتكريمًا من رؤسائه فشعر أنه نال ما تمنى، وقد بلغ القمة واستشعر حقًّا في راحة يستروحها فاستغل موظفو المجمع علاقتهم بسائسي الساحة فوقف الأمر عليهم دون غيرهم، فاضطر سالم أن يوقفها عليهم استيعابًا للأمر ففسدت وانعدم عائدها وتعلل القائمون على إدارة ساحة الانتظار بأنها تعمل نهارًا أثناء سير العمل بالمجمع ولا تعود بعائدٍ ليلًا مع أن من يمر عقب أوقات العمل، وفي العطلات فسوف يجد أسرابًا متباينة من السيارات تختلف باختلاف الوقت من اليوم والأسبوع بل ومن الشهر والسنة فيختلف مرتادو الفنادق القريبة وزوّار وسط المدينة ....وهلُمَّ جَرًّا.

ولما ظهرت صيحة القيادات الشابة ودفق الدماء الجديدة في شرايين الهيكل الإداري للدولة استثمر الرجل الفكرة فدفع بأبناء العاملين للتدريب والعمل بنظامي العقود والمكافأة الشاملة، وكان ضمن هؤلاء الوافدين ابن الرجل

نفسه بناء على خطة الطبخ المنزلية وخليط الخلطة التركية فقد ألحَّت عليه زوجه أن يستغل الصيحة الجديدة بأن يغرس فسيلته في أرض المجمع قبل أن يحصده سن المعاش.

انخرط ابن سالم عبّادي في العمل، واختط لنفسه فيه موضعًا، بل مواضع لم تُرْضِ من حوله ممن هم أسبق منه في الأمر وأحقُّ، وحينما شرع الموظفون في التعبير عن اعتراضهم أخذ سالم عبّادي يمارس ما يراه حقًّا مما منحته إياه قوانين العمل تجاه من يسعون للشغب وتعطيل مصالح العمل وخدمة المواطنين.

*************

# حركة رباعية - سريعة

وقف سالم مشدوهًا مبهوتًا مما يراه وهو يفرك عينيه بيديه حتى يتبين له مما يراه – أحقٌّ هو، أحلم أم حقيقة، فالميدان هوة سحيقة سوداء تملؤها أكوامٌ من التكاتك السوداء تعلو أسقفها أسرابٌ من أَغْرِبةٍ سود. يسبل عينيه ثم يفتحهما فلا يجد لما يراه تغيرًا، أخذ يكرّر ما يفعله بينما صوت صاحبه يتردد في أذنيه: (يا صاحِ، إن السياسة نجسة وأنا أعرف طماحك وشدته، ولكن حذارِ من أن يأخذك فلا تستطيع معه عودة ولا إيابًا حيث تتعلم التنازل وتتقن التبرير وتستسهل الخطأ، وتعمى عيناك فلا ترى غير نفسك، السلطة قذرة من اقترب منها تضمخ بنجاستها واعلم أنه كلما استطالت قامة الرجل في السلطة كلما استطالت وشحذت معه شوكته فتظل شوكته تستطيل وتشحذ شيئًا فشيئًا حتى يصير كسرها سهلًا يسيرًا عندها تندق عنقه ويلقى به خارج الدائرة، إن الطامعين في السلطة كالإلكترونات يدورون حول نواتها تحملهم حِمْيَةً الطموح وحَمِيّةً الطمع فتدفعهم هاتان الطاقتان

لأن يرقوا ويرتقوا دارة فدارة حتى إذا اقتربوا من النواة احترقوا، ولم يخترقوا ومن أدركته النجاة خمدت ناره وطاقته فيعود أدنى مما كان).

**************



# عمارة الحرية -الدور الرابع -شقة 6

(أُوْلَئِكَ عِيَاْلٌ يَلْعَبُوْنَ في أَوْسَاخِهِم)

عبّاس محمود العقّاد

يتردد على مقهى (الحرية) روَّادٌ كثيرون مختلفو المشارب والمصادر والموارد، أعمارٌ متباينة، وثقافاتٌ متنوعة، لذا فقد يغلب على جَوِّه وخاصةً في الليل – ما أسميه - الهدوء المتناغم حيث تسمع هزجًا وأزيزًا كأنما جوقةٌ كَنَسِيَّة حيث لا صخبٌ ولا نشاز، حتى وإن عَلَتْ ضحكةٌ ما لِمامًا فكأنما انفرد عازف بعزف منفرد. أطرافٌ من الأحاديث والمناقشات متعددةٌ - لاختلاف أصحابها - بتعدد صنوف المعرفة والثقافة والفنون.

وبحكم الجوار؛ فأنا من رواد المكان، فأنا أسكن بأحد أزقة حي عابدين حيث نشأتُ ودرجتُ وتربيتُ، وشببتُ فيه عن الطوق، وساورتني فيه أيام الرَهَقِ والنَّزَق، لعبتُ في حاراتِهِ الكرةَ طفلًا، وفي الميدان أمام القصر يافعًا، جبتُ شوارعَه وأَزِقَّتِهِ ليلًا ونهارًا، وتَسَكَّعْتُ في دروب مطير لياليه شتاء، وتَصَعْلَكْتُ في هجير أيامه صيفًا، لاصَقَتْ جوانبي رطيبَ ترابه، وَتَنَفَّجَتْ أعطافي بنسائم أجوائه، لي في كل ركنٍ منه ذكرى، وفى كل حائطٍ مسند، وعلى كل سياجٍ متكأ، وعلى كل ناصية من طرقاته لِمَّة، لي في كل بيتٍ منه صحبة، وفي كل نافذة نظرة وإشارة، أعرفُ مقاهيه وتعرفني، بل لك أن تقول:

إن مقاهيه تعرفني أكْثر مما أعرفها، تعلمت في أجوائه حروف الهجاء – تَهَجِّي أحرف الحب، وألف باء الفن، وحروف لغة الحوار والسياسة. انتهى بي مطاف المقاهي بعد مقهى (استراند) أن اتخذتُ من مقهى (الحرية) مستراحًا ومنتدى؛ أتناول فيه شاي الصباح وقهوته، وَأَلُمُّ به في طريق عودتي من العمل، ثم أقضي فيه جلسة المساء لا سيما مساء الخميس.

ظلّ المقهى على تلك الحالة العبقريّة من الهدوء المتناغم حتى بدأ في التردد على المقهى مؤخرًا مجموعة من الشباب الجدد متخذين من أي نضدٍ بموضعٍ مجلسًا، وشيئًا فشيئًا بدأ ظهورهم بالمقهى يترى ويتوالى حتى صار لهم موضعٌ بعينه يتخذونه مجلسًا، وذلك أمارةٌ على أنهم قد صاروا من زبائن المكان.

خمسةُ شبان لا توجد إلا مجتمعة كأصابع اليد الواحدة، وقد يتردد عليهم بين الحين والحين خلطاء آخرون بيد أن الخمسة لا يتحركون إلا جمعًا، ملامحهم مصرية صرفه ولا تبدو في دمائهم دماء أخرى، هندامهم مشعث ولكن ملابسهم باهظة الكلفة، أصواتهم عالية في سمرهم ونقاشهم وضحكهم وحتى أثناء تناولهم لطعامهم، فكسر حركهم وسكونهم بحور الشعر الغنائي والملحمي التي كانت تسبح فيها أجواء المقهى ليلًا، وبالجملة فقد مخرت طوَّافتهم بحر الهدوء المتناغم فغضضت سطحه وقطعت أصواتهم ذلك التوافق النغمي الذي كان ينعم به المكان.

لن أطيل عليك فقد رابني أمرُهم -من تواجدهم الفجائي شبه الدائم، وكيف اتخذوا لهم بالمقهى موضعًا لا يبرحونه، وكيف يعاملهم نُدُل المقهى معاملة البكوات فأدركت أنهم يغدقون عليهم بسخاء – فعزمت على اقتفاء أثرهم وخبرهم من نادل الليل ونادل النهار فرويا لي أنهم شباب جامعيّ يتخذ من الشقة السادسة بالدور الرابع من عمارة (الحرية) مسكنًا، قلت : (يتخذ مسكنًا ؟ إن لهجتهم قاهرية ألا يعيشون مع أهليهم ؟)، قال: (إن أهليهم يعملون بدول الخليج وهم يدرسون بإحدى الجامعات الخاصة بكليات مختلفة، وقد جمعتهم سابقة المعرفة والجامعة الواحدة).

ربما أكون قد أثقلت عليك حديثًا إذ أكثرت من ألفاظ الحرية وتكرارها ولكن المقهى والبيت بل والميدان مسماة جميعها بنفس الاسم، فذلك البيت أو تلك العمارة المسماة بالحرية عمارة خمسينية البناء تقع على ميدان الحرية، أسفلها فرع صغير لمصرف أجنبي جهة الميدان، وحلواني (أندلسية) جهة الشارع الجانبي، وجل شققها عيادات ومكاتب وشركات إلا من سكان قليلين، وميدان الحرية هذا إن كنت لا تعرفه هو ميدان الأزهار سابقًا وباب اللوق فيما قبل، والمقهى الذي نتحدث عنه هو مقهى الحرية الكبير الواقع على إحدى جوانبه حيث كان مزارًا ومجلسًا لكُتَّاب سابقين كالمازني وغيره. لقد تجرأ هؤلاء الشباب فكسروا "الرِّتْمَ" الغالب على المكان فبُهِر بجرأتهم أناسٌ ونفر منها آخرون.

لا يستحي الخمسة من صوتهم العالي وما قد يسببه من مضايقة للآخرين، كذلك وقد يتطرق حوارهم أحيانًا لموضوعات قد تخدش الحياء العام

قد يعجب بها بعض الحضور، ولكن إبداء الإعجاب صعبُ المراس لذا تُكْتَمُ الضحكات ويستتر الإعجاب، وقد يعرض آخرون متبرمين متململين.

بدأ معظم مرتادي المقهى في التبرم بهم وبوجودهم، والمعجبون بهم – وهم قلة -لا يستطيعون إظهار إعجابهم، والندل يحاولون التخفيف والتلطيف؛ فقد يحرمون من نفحاتهم التي لا ينقطع لها نبع، ولا ينقضي لها موسم. وهكذا قد ينقضي كل يوم وليلة بتراضٍ وتوفيق وأحيانًا تلفيق حتى تمر (وردية العمل) ويحين وقت التسليم أو الإغلاق.

وعطفت ذات ليلة على محل (أندلسية) لابتياع بعض الحلوى وبينما يقوم الرجل بتغليفها إذ ببعض الهرج والمرج والجلبة والضحك الهستيري تنفذ إلينا من إحدى نوافذ العمارة فتلعثم الرجل بالاستغفار فاتخذت من ذلك مدخلًا للكلام متسائلًا: (ما تلك الجلبة؟) فأجاب وكأنه ينتظر سؤالي كي يفرّج عن نفسه ما بها ويفرغ بعضًا مما بداخله: (أولئك مجموعة العيال الجدد في العمارة بشقة الأستاذ (رجائي) ... جرأة ... قلة حياء ... قلة ديانة ... صوت عالٍ، ومن يوم أن سكنوا العمارة والمشكلات والمشاجرات بين قاطني العمارة لا تنتهي ... تارة بالعبث، وأخرى للعبث، وتارة بالوقيعة، وأخرى للوقيعة، مرة بسوء الأدب، وهكذا؛ فقد لا تجد وراء سعي لهم نفعًا). قلت: (إني أراهم دائمًا بالمقهى، ولكن بعض الناس يثنون عليهم ظرفًا وخفة وأريحية)، قال الرجل : (إنما أولئك أمثالهم، أو كانوا يودون يومًا أن يكونوا أمثالهم فيرون أنفسهم فيهم، والطيور على أشكالها تقع).

خرجت وأنا متحير في أمرهم -بين رأي رافضٍ لهم نافرٍ منهم، ومنبهرٍ بهم منفتحٍ عليهم. وإن كنت للأولى أميل وأركن، فقد قلبوا حياة المقهى، ومن ورائه العمارة، بل قلبوا حياة الميدان كله رأسًا على عقب وردوه ظهرًا لبطن وبطنًا لظهر وصاروا حديثًا على كل لسان من البوابين إلى الكوّاء فالبقال فأصحاب الأكشاك فالمطاعم المنتشرة حول الميدان، وجميع هؤلاء شأنهم فيهم متصرف كشأن رواد المقهى بين رافضٍ لهم نافرٍ منهم، ومنبهرٍ بهم منفتحٍ عليهم. ترى بأي الناحيتين هم أَحْرَى، وإلى أي الجانبين هم أقرب؟

**************



# بَيْتُ المُحَامِي

هذي الشخوص، من التّراب ، كوائِن ؛

فالمرءُ ، لولا أن يُحِسّ ، جِدارُ

ويقولُ داري ، من يقولُ، وأعبُدي؛

مَهْ...! فالعبيدُ ، لربّنا ، والدّارُ

أتروِمُ من زمنٍ وفاءً مُرضيًا ،

إنّ الزّمانَ ، كأهلِهِ ، غدّارُ

تقِفونَ ، والفُلكُ المُسخَّرُ دائرٌ ،

وتقدِّرونَ ، فتَضحكُ الأقدارُ

أبو العَلاءِ المَعَرِيّ

هاتفت والدتي كي أطمئن عليها فما لبثْتُ أن بادرتني بقولها :

- (لقد توفي حسن). ثم أعادت القول مع فضل بيان :
- (حسن زوج إلهام)،
- (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون)،
- (رحمك الله يا عم حسن)، رددتُ ذلك حتى بعد أن أنهينا محادثتنا وهي تلح علي في تأكيد ذهابي للعزاء ليلًا.

عم حسن أو عم حسن زوج إلهام كما كان يلقب في محيطنا ومن ثم ينتقل عفوًا لألسن الصغار. ولطالما حيّرني ذلك اللقب صغيرًا فالرجل مميَّز لا يحتاج إلى فضل بيان فكيف إذا كان بهذا الشكل الذي يعد معيبًا في نظر الرجال. وما شفتني ردود من سألتهم وسألتهن. فلما تزودت ببعض المعارف العربية وجدت أن تلك الإضافة ليست بكنية معهودة فالكنية عند أهل العربية

ما يجعل علمًا على الشخص غير الاسم واللقب، نحو: أبو الحسن وأم الخير، وتكون مصدرة بلفظ أب أو ابن أو بنت حينًا، أو أخ أو أخت حينًا آخر، أو عم أو عمة مثلًا، أو خال أو خالة أحيانًا أخرى. وقد تستعمل الكنية تفخيمًا لشأن صاحبها أن يذكر اسمه مجردًا وتكون لأشراف الناس. وقد كان الرجل عند العرب يلقب باسم محبوبته كقيسي ليلى ولبنى وكثير عزة وجميل بثينة أو محبوباته كابن قيس الرقيات، ولا أعلم أحدًا لقب باسم حليلته إلا أن يكون قيس لبنى وهو قد نسب إليها كأسلافه عشقًا لا زواجًا. ولكن أين ذلك كله من لقب عم حسن؟ علمت أن ذلك اللقب لم يكن مدحًا ولا ذمًا وإنما النساء في تلك الأحياء العتيقة قد اعتدن وصف الأعيان بما يعرفنه ؛ فعم حسن هذا كان زوجًا لصديقتهن وتِرْبَتِهِنّ إلهام فوصفنه بها ونسبنه إليها ليسهل وصفه بينهن عند ذكره أو الإشارة إليه، وأطفالهن بطبيعة نشأتهم في حجورهن يلتقطون تلك الإشارات فتغلب عليهم أو يمتلكوا أزمة ألسنتهم فيحسنوا ضبط ما يبدر عنها. وأذكر أني كنت عند صديق لي ونحن في مرحلة الدراسة الثانوية وحدثته والدته في أمر ما مقترحة أن يكلف شخصًا يدعى محسن عصفورة بالقيام به فظننت صاحب الاسم طفلًا فقلت له :

- (أليس محسن ذاك صغيرًا على هذا الأمر؟)، فضحك بملء فيه وقال :
- (محسن هذا جار لنا متزوج وعنده أطفال) ، قلت :
- (فما عصفورة تلك؟) ؛ فقال :

- (ذلك لقب زوجته، ولكن نساء البيت اعتدن فيما بينهن أن يشرن إليه بهذا اللقب) ؛

فأومأت مبتسمًا ورويت له شاهدًا من عندي، وكان ذلك الشاهد هو عم حسن أو عم حسن زوج إلهام.

- رحمك الله يا عم حسن.

وظللت مذ سمعت النبأ لا تفارق عيني صورة الرجل، حتى إذا جُنَّ الليل وصُليتْ العشاء الآخرة مضيت في طريقي للعزاء. كان عم حسن رجلًا أسمر البشرة، رصين الطلعة، هادئ الحركة، لين التناول، سمح المعاملة، يشبه الرئيس السادات بشرةً وشاربًا قسماتٍ وبنية، إذا رأيته قلت : كأنه هو. كان يعمل موظفًا حكوميًّا فيقضي بياض يومه بين عمله وراحته في منزله إثر عودته، فإذا ما خضبت الشمس بغروبها كف السماء رأيت الرجل يهبط في تؤدة من مسكنه في الطابق الأول ليفتح مصراعي محله في البناية ذاتها، كان يرفع باب محله فتلتف حصيرة الباب فتلتف معها رأسي، فيظهر ما بداخل المحل شيئًا فشيئًا فأرى ما بداخله بخيال نشوتي لا بعيني رأسي فقد كانت ظلمة الداخل لا تبدي لنا من الأرفف شيئا. كان يرفع بابه فتدور أسطوانته كما تدور أسطوانة صندوق الدنيا لتتحرك الصور، آه ... ويكأنه كان يفتح لي مصراعي دنيا أخرى غير دنيانا التي نعيشها. كان عم حسن (خُرْديّا) أو كما كان يطلق عليه أهل تلك الأيام (خردواتيّا) نسبةً إلى ما يباع في تلك المحال من مختلف صغار

سقط المتاع من حلوى وقصص وأدوات مكتبية إلى جانب مستلزمات تطريز (الكَنَفا) و (الكروشيه) و(التريكو)، وما يتطلبه ذلك من خيطان وأقطان وإبر وغيرها، ولا أنسى يوم أن سخر مني إخوتي حينما اشتريت واحدة من تلك (الكَنَفا) أعجبتني صورتها ظنا مني أني سوف أملأ ثغورها بالخيطان فتتجمل بألوانها، وقالوا هذا ليس من شغل الرجال بل من شأن النساء. لا تزال صورة المحل عالقة بذاكرتي وقد كسيت لوحتها بوميض من لون الغروب تعلوه رائحة التراب النديّ لأنه كان يندِّي الأرض بالماء إبان فتح محله ترطيبًا لحرارة الجو وجلبًا للطراوة كما يقولون وكأن للهواء منابت في الأرض حينما يسقونها تندى في الجو أفرعه وأوراقه فيصير غضًا لينًا طريًّا، ولا تزال صورته وهو جالس أمام محله حليق الوجه، براق الثنايا، منمق الثياب، يضع رجله اليسرى على اليمنى وهو يتصفح الجريدة، إذا رأيته لا تحسبه موظفًا حكوميًّا كموظفي ذلك الزمان. كنت أدخل وأسلم عليه على حياء الطفولة فيبتسم ابتسامته الهادئة وعيناى زائغتان تتقلبان في الأرفف يمنة ويسرة تأخذني القصص المختلفة بالشوق إلى عناوينها وألوان صور أغلفتها المبهرة وأود لو تقفز عيناي خلف تلك الأغلفة لترى ما خلفها وما بداخل تلك الأوراق من عالم ملؤه الخيال في صور وحكايا، وإن صيغ من أحرف بلهاء وألوان ساذجة. لا أنسى مجموعة سمير التي كان يصدرها السحار، ولا ما قرأته منها : الحصان الأبيض، تيتي والبطة، أين الفطيرة، من أنا، النسر يحلق...وغيرها وما كنت أنتهي من واحدة إلا وأشتهي أخرى حتى قرأت المجموعة كلها ولطالما كنت

أحتال بالخيال فأتمنى لو أنفذ خلال تلك الصور فأشارك أبطالها وشخوصها في أحداثها، وكان آخر ما ابتاعته من قصص تلك القصة والتي أحسبها لدي حتى يومي هذا وكان عنوانها : "اليتيمان"، وكنت حينئذ أحاول الشب عن الطوق متحللًا شيئًا فشيئًا من البهر والكلف بالقصص المصورة إلا من بعض صور الكربون غير الملونة. رحمك الله يا عم حسن.

وتقدمت ناحية سرادق العزاء وصوت القارئ يتغلغل في مسام الأثير وكان عذبًا يتلو ربع: "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ" وكان السرادق مقامًا أمام موضع بيت المحامي...دخلت السرادق وأنا أتلفت باحثًا عن البيت وكأنني أبحث عن شبح شخص لا عن شبح بناء، لقد عفا أثره واختفى رسمه، ترى ما الذي حل به؟ أغيّره البِلى أم تقادمت عليه الأيام والعهود فانمحى، لا ... ما غيره البِلى ولا تقادم العهود بل محاه من استبدَّ فاستبدل به تلك العمارة الشاهقة الجديدة. صافحت القوم مصافحة العزاء وانتحيت مكانًا أشاهد منه موضع البيت فقد صار لا يسيطر عليّ إلا اختفاؤه

كان البيت مبنيًا على غرار الاستراحات والمشاتي المصرية في ثلاثينيات القرن العشرين : منزل صغير ذو قبو وطابقين؛ الأعلى لليل حيث غرف النوم والأدنى للنهار حيث بهو للاستقبال والمعاش وملحق به مطبخ، والقبو كالعادة خزانة عامة، ويستقبل البناء حديقة صغيرة ذات سياج حديدي ترتمي على أكتافه وبين أعطافه شجيرات الياسمين بأنواعه، كما يستدبر البناء حديقة أخرى أكبر قليلًا بها شجرة توت عظمى وارفة الظلال. وكان البيت محط أنظار فلم

يكن يتاخمه جدار لجار، يشرف على شارعين رئيس وفرعي كما يشرف على حارة وعطفة فكأنه ميدان وحده، هكذا كان بيت عادل بك أو كما كان يطلق عليه أهل الحي بيت المحامي.

وكثيرًا ما كنا نحاول كصبية أن نفهم من يكون المحامي هذا ولماذا يسكن وسط أناس ليس له علاقة بهم إلا من علاقة هامشية ببعضهم قد لا تتعدى إلقاء السلام والتحايا المقتضبة، وإن كان هذا بيته فلماذا لا يقطنه على الدوام فنحن لا نراه إلا لمامًا إذ لم نكن نفهم في تلك السن أن الرجل إذا تيسرت حاله تيسر له أن يقيم في أكثر من نزل ويتبادل أيام الأسبوع بينها. روى لي أحد من كان على علاقة هامشية بالمحامي أن مالك المنزل الذي يقطنه ذلك الراوي أراد أن يطرده من مسكنه ورفع دعوى بالطرد فانتهز الرجل فرصة تحية المحامي واستشاره في الأمر فمر بعينه في طلب الدعوى واقتضب الرد كعادته اقتضابًا فلما كان يوم الجلسة يقول الرجل: فوجئت به داخل قاعة المحكمة مبتسمًا لي وقام عني مدافعًا فلم أكن قد وكلت عني محاميًا، فلما أتم مرافعته دهشت لمدى ما أبداه القاضي له من تقدير واحترام فلم يسأله حتى عن نموذج توكيله عني بل خاطبه بقوله: ماذا تطلب يا عادل بك، فطلب إسقاط الدعوى فحكم له بما طلب. ورغمًا عن ذلك فقد كان أمر المحامي لغزًا لنا محيرًا لذا فقد كنا نطلق العنان لحواسنا الخمس ونلقي الحبال على جوارحنا السبع فنعطي لأنفسنا حقًا ليس لها بحق حتى تفهم بعضًا مما تميل إلى فهمه؛ فكنا ننتصت لأحاديث الكبار

رجالًا ونساءً نسترق السمع حينًا ونرهقهم أسئلة أحيانًا أخرى، وكان حديثهم يتطرق لثراء الرجل وإلى عمارته في شارع الجيش وإلى مكتبه بوسط البلد وإلى أن منزله هذا لم يكن لزوجته أم أولاده وإنما كان لراقصة وقع في شركها وهيم بها فتزوجها واشترى لها ذلك المنزل حتى يكون بمنأى عن أعين رقبائه. كان حديث الرجال يتطرق لجمال المرأة وكيف كانت نسائم الصيف تسري في الليل حاملة أهازيج موسيقى توحي برقص راقصة لزوجها، وكان حديث النسوة يتطرق لضجر المرأة في هذا البيت الذي كانت تعده منفى وهي التي اعتادت الخروج والولوج ورؤية الوجوه، كيف يحجر على مثلها في تلك الحياة الجافة النائية وتظل معظم أيام الأسبوع بمفردها وهي التي اعتادت الألفة والأُلَّاف ورخو الحياة المستمد من لين قرب الناس وصفو توادهم.

كانت تروى حول البيت أساطير خاصة بين الأطفال والصبية من مثل أشباح تسمع أصواتها في الليل خاصة بعد أن هجر البيت وألفت سكناه الهوام والحشرات والوزغ، حتى شجرة التوت هجرها صبية الحي وكأنهم ألفوها في وجود صاحبها.

ما خامرني شك قط في زوال البيت من مكانه حتى بعدما توفي صاحبه وورثه ابناه ولا حينما هجره الوارثان فترة من الزمن، ودب أمل جديد في بقاء البيت بعدما ظهرا فجأة وتناوبا قضاء بعض الوقت فيه ثم ما لبثا أن ملَّاه وأخذا في التخلص من أثاث البيت ومتاعه بيعًا وإهداء وهبة، كل ذلك وأنا يحدوني أمل أن يحيا البيت من جديد على يد من ورثاه أو على يد من يقدره حق

قدره فيشتريه وينفخ  فيه روح الجدة، حتى بعدما شهدت خروج الثريات والشمعدانات النحاسية والمقعد الهزاز وغيرها كان لا زال عندي أمل في البقاء فكيف أتصور الحي بدونه أم كيف أسلخ من العمر مرحلة الصبا وهو ملعب من ملاعبه.

لا أنسى حينما كنا نتسلل خفية ونرقب المحامي من خلف السياج قبيل الغروب وهو جالس أعلى الدرج المؤدي لمدخل البيت على مقعده الهزاز في عباءته الفرنسية، ورائحة غليونه الأروماتية تعيث بأجواء المكان فتعبث بأنوفنا فتستسيغها أمزجتنا وإن كانت غريبة فهي ليست زكية كرائحة البخور ولا كماء الكولونيا ولا كزيوت العطور من مسك وماء ورد وغيرها ولا هي خبيثة كرائحة الدخان بل هي رائحة تجمع بين الزكاء والخبث في ذكاء فريد فإذا ما خالطتها رائحة سياج الياسمين سرى في جو المكان مزيج عبقري يعجز دونه أمهر عطار، فإذا ما سجا الليل وأنيرت ثريات البهو ألقى نورها الذهبي بظلال الأثاث والمتاع على زجاج وستائر النوافذ المختلفة فيلتف البيت بهالة من البهاء والسحر تكملها أحاديث السمر تتخللها ضحكات ناعمة وقهقهات واثقة كأنها تتردد من غور بعيد وراءها خلفية من الموسيقى الهادئة، وصوت الرياح في الخارج تعزف على أغصان وأوراق.

وإذا ما حل الربيع حل معه موسم التوت ... التوت نبتة الصبا وفاكهة الطفولة وحلوى الصِغَر، من ينساه ؟! وهو من نسيج صباه وسياج ذكراه،

جُزْنا دونه المخاطر وتسوّرنا من أجله الأسوار والمعابر، وركبنا من أجله سيقان الفرار، تجري خلفنا كلاب جنانه ونواطير أفنانه.

إبداع في خلقه يدل على إبداع خالقه، لو كان للعنب عناقيد تبدي جماله فواحدة من التوت عنقود وحدها، منظم منتظم مرصع منسق مختال في زينته، حلاوته تجري لها الدماء ويسيل لها اللعاب، أفانين ألوانه انعكاس لجمال الطبيعة فمنه الأسود والأزرق والأبيض، صبغته حلوة قانية مبدعة في ذاتها فإن كان الأبيض – وقد كان المفضّل عندي في صباي - فهو في لون الشهد والعسل المصفّى والسكر المكرر المنثور، وهو عزيزٌ وجوده، سامٍ في عزته، وكنت ألتمسه فلا أجده فإن وجدته ضننتُ به في أكله حتى على نفسي، وهذا شأن كل غالٍ ممتنع.

نبتة عشقت الخيال فهي جارة النواعير والسواقي وأليفة النّاي والمزامير وسميرة الشعراء والزجالين، سامقة عالية كأنما تناغي القمر وتعانق السحاب وتتلقّى قبلات السحاب في حروف المطر.

والتوت في الحقيقة والانتباه كما نراه، وهو في المنام وتعبير الرؤى يدل أكله على كسب واسع نافع، والأسود منه دنانير، والأبيض منه دراهم، وشجرته رجل صاحب أموال وأولاد، والتوت يدل على صلاح في الدين وحسن في اليقين.

يحل الربيع فيحل معه التوت، أو يبدو التوت لأعيننا فيحمل الربيع معه، لتحل معهما المغامرة والإغارة، فتوزع الأدوار ما بين متسلِّقٍ ومتسوِّرٍ وجامع للتوت جانٍ ومتسقِّطٍ للغنيمة لاقطٍ، ثم توزع الغنيمة؛ ومن حضر القسمة فليقتسم. ولست أنسى حينما حان دوري في الجمع والجني -وتلك كانت أصعب مهمة لأنها تتطلب التسلق والتسور ثم التمكن من موضع الجني والجمع ثم العودة نزولًا أو الفرار فدائمًا ما كانت المهمة فجة مبتسرة لا يشبع مغامروها من الجني والجمع فيدركهم الحارس فيمعنون في الفرار – فأهاب بنا أحدهم أن قد أدركنا الحارس فشرعت في الفرار وإذا بيد على كتفي الأيمن فتملكني الفزع ونظرت نحو صاحبها فما أفلتني منها ومن الفزع الذي انتابني إلا أنها وافقت يد ابن عم حسن والقارئ يتلو بنغمة الختام: " أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ " فربت على كتفي قائلًا :

- (عظَّم الله أجرك وسلَّم خطوتك) ، واتخذ لنفسه المقعد المجاور لي، وصادف

تصديق القارئ للاستراحة فانتهزتها فرصة لأسأله عن أمر البيت واتخذت ذكر عم حسن مدخلًا فأثنيت على الرجل مترحمًا عليه وداعيًا له بالجنة ولأهله بالصبر وبالسلوان ثم عرجت على الأيام الخوالي وعلى الحي وأهله وتغير الدنيا من حال إلى حال ثم استدللت بأمر البيت مستفهمًا أمره ومآله؛ فأجاب وكأنه كان متأهبًا للرد : لقد باعه ابنا عادل بك للمعلم حسنين الجزار

الجملي فسوَّى البيت بالأرض وتطاول بتلك العمارة، وأخذ في وصف العمارة وصاحبها وكيف أنه استغل البيت حينما تأخر ترخيصا الهدم و البناء لصدور قانون حظر البنايات القديمة فجعل منه حظيرة لمواشيه وأثنى على ذكائه وخاصة في التعامل مع مرخِّصي الهدم والبناء بالحي وكيف استطاع التفاهم معهم وفهم لغتهم وتخير من الطرق أقصرها فكانت تلك العمارة الجميلة والعقبى لك ثم استماحني عذر القيام لمتابعة أمور العزاء إذ القارئ قد شرع في استئناف تلاوته : "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" ، ونظرت إلى تلك العمارة الجميلة فوجدتها علبًا من الأسمنت تراصت طولًا وعرضًا كعلب أعواد الثقاب لا هندسة ولا عمارة ولا ذوق، ثم نظرت ناحيته مشدوهًا متذكرًا كلماته في ثنائه على الجزار:

- ( استطاع التفاهم معهم وفهم لغتهم وتخير من الطرق أقصرها).

كيف يكون هذا ابن عم حسن، لقد كنت أعزي نفسي بالتغير الملحوظ في أيامنا الأخيرة بظهور نشء جديد وعودة جيل من خارج البلاد لم ينشأ بيننا، اضطرت شؤون العيش آباءهم للاغتراب ولم تمهلهم الغربة لتربية أبنائهم كم تربوا ونشأوا، فما العذر لمثل هذا وقد نشأ وتربى وشاهد المثل والمثال فكيف انحرف عن جادة أبيه، هل تغيرنا حتى جاوزنا الحد أم أنني قد صرت مغتربًا لا أريد أن أتفاعل وأجهل وأتجاهل كمن يعيش مغتربًا لا يعنيه من أمر من يعاشرهم إلا أن يجمع غنيمة الغربة ليؤوب لوطنه، فلكل بلد حال ولكل قوم أخلاق وأحوال. كيف أعجب بل وأحزن لهدم بيت المحامي وقد

انهدم من هو أولى منه بالعجب والحزن. لا جرم أن يتغير الحجر فقد تغير البشر، لقد تغير الإنسان فتغير المكان فتغير بتغيرهما الزمان، ثم قطع القارئ شرودي باستئناف تلاوته فتلا: " هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ".

*************

# شُبَّاكُ الهَوَىْ

**أُقصوصة في خمسة أصوات خافتة**

(حينما ظهرت الحقيقةُ عاريةً في شوارعِ أثينا نَفَرَ منها الناسُ، ثُمَّ ما لبثوا أن غطّوها ولكنهم لم يُخْفُوها).

حكمة يونانية قديمة

# فتى

منذ أن حَلَّ ذلك الرجل متخذًا من تلك الشقة في الطابق الثاني من البيت المقابل لبيتنا مسكنًا له وستائر شُبّاكه المطل على الشارع تعبث بأفئدة أهل الحى وعقولهم، فمنذ أن استقر الرجل بيننا وستائر بيته منسدلة لا ترتفع ولا يحركها إلا نسيم العصاري، وتحنان الرياح بالليل، ومن ورائها أشباح تلوح كخيال الظل تعبث بصدور الجِيْرَةِ فَتَرِقُّ لها قلوب الشيوخ حينما يرون الرجل دائمًا في مصلّاه إما راكعًا أو ساجدًا، وتعبث بقلوب الصِّبْيَةِ وتجمح بأخيلتهم وتجنح حينما يَخْطُرُ من خلف ذاك السِّتْرِ خيالٌ لفتاة تَتَهَدَّلُ خصلات شعرها الفينان من خلفها فتنصهر لها قلوب الفتية والصبيان. وقع الناس في التعلق بأُسْرَةِ الشُّبَّاك وستاره بين تعلُّق بإيمان الرجل وتَعَشُّق بخيال الفتاة، فإذا ما تَدَلَّى المساء وابتسم نور الثريا لقدومه في المنزل ذي الشُّبّاك والستار امتلأت النوافذ والشرفات والأسطح بالنظَّارة والرُّقَباء ما بين رَهَق ونَزَق لرقباء الفتاة، وبين قلوب تَتُوْقُ وتَتَوَّقَىْ من رقباء الرجل إلى النظر إلى

مؤمن مُتَبَتِّلِ فلم يكن الرجل ولا ابنته يظهران في الطريق إلا قليلًا حتى إن من يراهما كان يتحدث بذلك كأنما قد رأى نادرًا.

**الرجل** لقد أحسنتُ صُنعًا بسُكْنَاي في هذا الحيّ ؛ فهو هادئ نوعًا ما، أستطيع أن أمارس فيه عملي بتؤدةٍ وصبرٍ دون أن يقلقني أو يقلقل من خاطري شيءٌ حتى إن جيراني – على تَطَفُّلِهم – يظلّون مراقبين لي دون أن يكدِّروا عليَّ صفوَ حياتي، وقد بثّوا فيّ ثقةً - في نفسي وفي أحوالي؛ فها هم شيوخهم أسمع نجواهم ليلًا من خلف الستار وهم يتهامسون بورعي ونُسُكِيْ وصلاتي وقيامي الليل تتجافى فيه جوانبي عن المضاجع بين راكعٍ حينًا فمطيلٌ في ركوعي، أو ساجدٍ حينًا فمطيلٌ في سجودي. ومالي إن تركتهم على ظَنِّهم الحَسَنِ فيّ، وفي حالي؟

**الفتاة** لقد ضَجِرْتُ بتلك الحياة التي أعيشها، وكأنني أحيا في الدنيا بمفردي، فها هو لا يَنْفَكُّ يعمل نهارًا فيما هو منشغل بالتفكير فيه ليلًا، فإذا أتى الليل عاد لما جَرَّد نفسه وكَرَّث حياته له، أما أنا فلا أَشَغْلُ من تفكيره شيئًا، حتى وإن جُلْتُ حوله في المكان ليلًا جيئة وذهابًا فكأنني خيالٌ مَرَّ أو طَيْفٌ سَرَىْ، ليته يُشْفِقُ عليَّ أو يهتم لأمري معشار ما يفعله الجيران فصبيانهم لا يحوّلون أعينهم عن موضع أبدو فيه، أو أتحرك خلاله.

**الفتى** الليلة سأحسم أمري، وأنجز أمرًا قد كان في قدر الله مفعولًا، ما الذي يحدث لو أقدمت على فعل ما أنتويه؟ أقلها سأمحو ما بداخلي من هموم وأوهام، إما أن يَصْدُقَ ما قاله رجلُ المقهى فأمحو صورة تلك الفتاة من داخلي، أو أن يكون فيما قاله كاذبًا، وحينها قد تغفرُ لي فعلتي، وتعلمُ مقدار ما أُكِنُّه لها، وتعذرني فيما أقدمتُ على عمله من أجلها.

**رجل** اسمع أيها الفتى ما قلتُه لك جيدا فقد قدّر الله لك ذلك اللقاء اليوم على غير موعدٍ بيننا حتى تُبْصِرَ أنت وأهلك وجيرانك حقيقة هؤلاء؛ فإنهم ليسوا كما تظنون فأنا أعرفهم جيدًا فقد كانوا جيرانًا لنا زمنًا.

**فتى** انتبهتُ في ذلك اليوم على جَلَبَةٍ في بيتنا وأصواتِ رَكْضٍ نحو النوافذ وتجاه الشرفات التي تطل على جيراننا الجُدُد، واختلطت أصواتُ مَنْ في البيت بألفاظ استفهامٍ وتعجبٍ واستنكار، وشَهَقَاتِ دَهْشَةٍ أُنْثَوِيَّةٍ أعرف معنى لحنها وموسيقاها.

فلَمَّا قمتُ من فِرَاشي هرعتُ نحو النافذة لأجد الفتى قد رفع ستار شُبّاك جيراننا الجُدُد بسنَّارة صيد فيرى الجميع أن الراكع ما هو إلا تمثال من

الجِصِّ والمصيّص في هيئة الركوع، وفي أقصى البهو تمثالٌ لآخر في هيئة السجود وبدا الأمر لكل من له عين أن الرجل مَثَّالٌ صانعٌ للتماثيل، تلك صنعته، ومصدر عيشته، بيد أني سمعتُ أطراف أحاديث وشتات كلمات من النسوة في الشبابيك من مثل : هل رأيتنَّ كيف كانت بين ذراعيه؟ ليس هذا بعناق أبٍ لابنته، يبدو أن قد صدق الفتى فيما ادّعاه، إذن فهي ليست بابنته، ولا حتى بزوجته، أهي عشيقته؟ أهي رفيقته؟ كيف سمح لهما مالك البيت أن يؤجر لهما وهو لم يرَ عقد زواجهما؟

انكشف الستار وكُشِف المستور – لا ركوع ولا سجود، لا رباط مقدس، ولا ميثاق غليظ؛ فليس ثَمَّ عقدٌ شَرْعيّ.

*************

# سَكْرَة يَنِّي

أَثَرٌ

مِنْ خمرة الحب وسكرة الحرب

(وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ)

رواه البخاري

إلى أخي جلال؛

أهدي...

(سَكْرَة ينّي) ؛

فهو الذي أغوى بها، وزيَّن شيطانها.

# أولًا

- (أصعب شيء هو أن تغيّر (كيفك) وأن تبدّل (مزاجك)، عندها يكون الرجل وكأنه يستبدل برأسه رأسًا أخرى، وما كنت أعلم أن المنكر يحتاج كل هذا الوقت حتى تعتاده دماغي وتتزن منه على مُقَنَّنٍ معين).

هذا ما كان يحدث حسنين المسيري فتوة محمد علي به نفسه وهو خارج يترنح ويتمايل ليلًا متكئًا على نبّوته من خمّارة يَنِّي، والرجل معذور فقد أغواه أولاد الحرام في تغيير كيفه من صنف البوظة إلى أصناف البراندي والكونياك وعرقي البلح والزبيب والطافية ونقيع السبرتو، واستبدال الأكواب والكؤوس الزجاجية بالقرعة الفخارية، ومنذ أن أغروه بها وزينوها له بدعوى التشبه بأباطرة عماد الدين وفتوات الأزبكية وكلوت بك، والرجل له ثلاثون يومًا يرتاد خمّارة ينّي ويختلف عليها ليلة بعد ليلة. وخمّارة ينّي هذي تقبع أسفل بناية المختلط خلف مقهى متاتيا بميدان العتبة حيث يلحظ الخارج منها

المُشَخِّصِين والمُغَنِّين الصَّيِّتة وعمال الملابس والديكور في تحركاتهم المستمرة دخولًا وخروجًا من الأبواب الخلفية لمبنى الأوبرا الخديوية.

وتقع خمّارة ينّي ضمن زمام فتوة محمد علي والذي يبدأ من النصف الثاني لشارع محمد علي بدءًا من باب الخلق ليمتد غربًا بمحاذاة الحسن الأكبر حتى شارع إبراهيم باشا فيحوط شارع السلطان عبد العزيز وما جاوره من أرض شريف ودرب المهابيل والعشماوي والبيدق ثم يخترق ميدان العتبة، ويعود ليلم بنهاية شارع محمد علي مرة أخرى ليتجه شرقًا فيضم سوق الخضار ودرب المناصرة والسويقة حتى الخليج المصري حيث حكمدارية بوليس مصر إذ ليس ثمة فتوة.

وهذه الحدود تتاخم حدود فتوات أخرى كفتوة الأزبكية بحيث تبدأ منطقته من الخازندار لتمتد إلى كلوت بك والأزبكية.

ظل المسيري ثلاثين يومًا كاملة يعالج تغيير مزاجه ويغاير بين البراندي والكونياك ونقيع السبرتو والطافية وألوان المنكر مختلفة الشراب حتى يرسو على مرفأ مزاجه الجديد كما أخبروه، والرجل على حاله هذه يغادر الخمارة كل ليلة ليفيق ضحى وظهرًا والصداع آخذ بمجامع رأسه فيحاول أن يخفف من آثاره نهارًا على مقهى متاتيا بأقداح الشاي والقهوة فلا يجد لذلك مدفعًا وحينما يبثهم شكواه يقولون له ناصحين : (إن المنكر هو الداء وهو الدواء ؛ فيه داؤك ومنه دواؤك) ويكأنهم يرددون له قول أبي نواس : "فداوني بالتي كانت هي الداءُ"،

أو قول البارودي : "فالخمر من ألم الخُمَار شفاءُ"، أتراهم يعلمون أم أن التجربة دائمًا ما تسبق الفن؟

بينا المسيري في خمر لياليه وخمار أيامه يقضي سواد ليله في عب الخمر وبياض نهاره في عب الشاي والقهوة وإذ بأحد رجال عبُّوده الدخاخني فتوة الأزبكية وصنو حسنين ونظيره يحتك بزوجة رجل من قاطني أرض شريف، وقد كانت تبتاع أقمشة من محل صيدناوي فابتدرها وهي خارجة فغمزها وعبث بها فلما استنجدت بزوجها بادره رجال عبُّوده فانهالوا عليه ضربًا وإهانة. بلغ الخبر حسنين وهو جالس على متاتيا عصرًا كعادته يعالج صداع رأسه يتجرع أكواب القهوة استعدادًا لليلة جديدة فاستقبل الخبر غير مكترث وما أعاده لسيرته الأولى إلا شهقات وتعليقات القوم من حوله: (كيف؟ ومتى حدث ذلك؟ كيف جرؤوا؟ ألم يعلموا أنها وزوجها في حماية المسيري؟). وكانت الصاعقة حينما ألقى عليهم الراوية بقوله: (إنهم من رجال عبُّوده الدخاخني) هنالك كاد حسنين أن يشرق بدخان نرجيلته فقد زادت الطاقة طاقتين والطامة طامتين وازداد الطين بلة وها هو يقع في شرك ومأزق جديدين أمسك بأحد طرفيهما عبُّوده حينما حكّ فيه حكّةً جديدة ولكزه لكزة يعرفها - والماضي بينهما مملوء لحافته -، وأمسك طرفيهما الآخر القوم من حوله حينما قالوا : (إن عبُّوده لن يعود عما فيه حتى يفيقه المعلم مما فيه). أراد حسنين أن يفض المجلس حتى يختلي بنفسه ليحزم أمره فافتعل حركة مسرحية فألقى ليَّ نرجيلته منفعلًا مفتعلًا انفعاله مبينًا غضبته تاركًا القوم تعلو وجوههم همة الحماس وفرحة الأخذ

بالتِرَة واسترداد الحق صاعين بصاع، وغابت عني جلستهم وغامت رؤيتهم فلا يبدو منها إلا نجوات متعددة: (المعلم غضب، المعلم لن يسكت، اللهم مرر تلك الليلة على خير، استر يا ستار).

مضى حسنين كئيبًا واجمًا فقد حدث ما لم يكن مستعدًا لحدوثه ولا متأهبًا لرده. ناجى حسنين نفسه: (ماذا أفعل؟ أعراك جديد؟ أم أهوِّن من قيمة الأمر فيهدأ وحده، أترى الناس سوف ينسون أم يتناسون فيظل الحدث سبة في قفاي ووصمة على رأسي تضيع بها هيبتي لا بين منطقتي فحسب ولكن بين الأزمّة والمناطق من حولي وأصير مضغة تلوكها الفتوات فيجترئون عليّ وعلى منطقتي؟ أنا إن جمعت الرجال وانقضضنا على خمارات ومواخير كلوت بك فتركناها كومة تراب ثم انثنينا إلى ملاهي الأزبكية وأوكار وش البركة فأحرقناها أيكون ذلك رادعًا ودرسًا لعبّوده أفيكون ذلك ردًا مسكتًا؟ وماذا لو استعان بفتوات روض الفرج؟ ساعتئذ أكون قد فتحت على نفسي فتحًا ليس لي طاقة به. أأطلب لقاءه منفردًا فألومه وأعاتبه على ما فعل رجاله وأحاججه بأصول الفتوة وأخلاقها؟ لا ... لا فأنا أعرفه خسعًا خسيسًا عندها سوف يستخف بي وينشرها عني معرة بين الناس أنني جبنت عن عراكه وخطبت وده ومهادنته خوفًا وجبنًا، أأشكوه لفتوات الجمالية والدرب الأحمر؟ أم سيستطرون عظمتي ويستضعفون هيبتي وليس بعيدًا أن يجترئوا هم الآخرون بدورهم عليّ أيضًا. ماذا أفعل ... ؟). ظل حسنين على جداله مع نفسه حتى حل المساء ونزل الليل إلا أنه قد وجد شيئًا غريبًا قد لاحظه فقد

لاحظ أنه منذ أن بدأ في التفكير في هذا الأمر وذلك الصداع اللعين قد فارقه فقال لنفسه :(أترى قد صدق أولاد الحرام في قولهم وقد قر قراري ووقعت على مزاجي ومُقَنَّني فلا أبدله؟ ماذا شربت ليلة أمس حتى أتناوله الليلة؟؟ ماذا ماذا؟ عجبًا لي فلست أذكر. على أية حال سوف أذهب الليلة للخمارة وهناك أقرر ماذا سوف أفعل في تلك المسألة التي جدّت) . ومضى حسنين لا يثنيه عن فرحته بمزاجه الجديد وتخلصه من صداعه شيء، مضى لا يلوي على شيء إلى خمّارة ينّي، مضى جزلان طربًا حتى أنه كان يردد ما يردده السكارى والندمان كل ليلة : (عيني على ينّي وسكرة ينّي)، مضى تكتنفه فرحة مزاجه الجديد وينغزه في الوقت ذاته وخز حار من أمر الدخاخني.

ترى ماذا سوف يفعل حسنين ؟ حينما يحل النهار .. سوف أعرف – فهو إن عاود الجلوس على متاتيا يعالج صداعه فقد صرف نظره عن المسألة وعاود علاج مزاجه ؛ فهو لم يعرف بعد أضاع الصداع من وقوعه على مزاجه أم من انشغاله بالتفكير في همه الجديد، وإن يك قد اجتمع برجاله فقد قرر أمرًا بيّته بليل. من يعلم ؟ فحسنين غير متوقع البادرة غير مُتَنَبّأ التصرف.

*************

## ثانيًا

- (الأمر شورى، والمعلم هو كبير الزمام فدعه ينظر في الأمر ليرى ما الصالح، ودع عنك أمور العيال والصغار واترك هذا الأمر للرجال والكبار)، فقال الفتى متهكمًا :
- (المعلم ... معلمك هذا يومه بسنة، وسنته بثلاثين سنة)، تلفت الرجل واضعًا سبابته على فيه وهو يقول :
- (اخرس، إن للجدران آذانًا)، فما كان من الفتى إلا أن أكمل كلامه وبنبرة الصوت نفسها :
- ( أنا لا أستطيع أن أرفع عيني في أعين أهل الزمام الأقارب منهم قبل الأباعد فهم لن يرحمونا حتى يتحرك معلمك وسوف يقطّعون لحمنا بألسنة حداد، خلاصة القول :
- ( ما تمسح دمعتك إلا يدك، وما حك جلدك مثل ظفرك، ولسوف ترى ما يفعله العيال الصغار حينما يتوارى الرجال الكبار) ، هذا ما قاله الفتى

في فورة الشباب لأبيه زوج المرأة صاحبة الإشكال. وانتهى المقام حينما غادر الفتى الحجرة وهو يستشيط غضبًا ماضيًا في عنفوانه.

مضى الفتى تحت جنح الليل يجرر أذيال الظلام خلفه ويبدو أنه قد عقد عزمًا على أمر قد نواه ودبر له عدته، وعند مبنى البوستة وجد من ينتظره فقال لهما :

- (ما الأخبار ؟) ، فقالا :
- (صاحبك قد بدأ لتوه في دورة الليل وسوف يبدأ بالمرور على خمارات ومواخير عماد الدين ووش البركة لينتهي قرب الفجر عند كلوت بك فكما يقولون هناك - تهكمًا - هو لا يعود حتى يطفئ كلوبات الغاز، ومهمتك لا تحتاج أكثر من ساعة فتوكل على الله).

اخترق الفتيان الثلاثة ميدان العتبة، وقد كانت الطريق ساكنة في شارع الجنينة إلا من أصوات لهوٍ يغدو بها الأثير ويروح قادمة من تلقاء كلوت بك، مضوا قاصدين بطرخانة كلوت بك حيث يسكن عبّوده الدخاخني في زقاق ملاصق لها. كانت الخطة أن يستغل الفتى علو جدران البطرخانة فيتسورها متخذًا منها مرقاة لمنزل عبّوده فيتسلقه حتى يبلغ سطحه فإن وجد شيئًا من ملابس عبّوده منشورة على أحبال الغسيل كان بها وإن لم فالمهمة أصعب حينما يكون عليه أن يبلغ حجرته، وكانت مهمة صاحبيه أن يرعيا له الطريق فينبهانه إن بدا أمرٌ ما. حالف الفتى حظه ووجد للدخاخني حبلي غسيل مترعين بملابسه ؛ فقال في نفسه :

- (يا فرج الله ؛ أردت جلبابه فوجدت جلبابه وسرواله وملاث عمامته)، هبط الفتى وقال لصاحبيه :
- (هلمّ بنا وفي الصباح للنفس مستراح).

أقبل أحد رجال المسيري عليه ظهرًا وهو جالس على مقهى متاتيا يكاد يأكل بعضه فلم يجد بعد للأمر حلًا وبالأمس لم يستطع النوم أن يجد لجفون المسيري سبيلًا فقد قلب هذا الأمر يومه رأسًا على عقب وأداره ظهرًا لبطن فلا هو استطاع أن يتمتع بوقته وسمره لدى ينّي ولا هو يستطيع النوم وقد جفاه، وظل طوال ليله يتململ في فراشه يقلّب الأمر على جوانبه ويقلّبه الأمر على جانبيه، ولم تغفل عيناه إلا وهو يسمع المنادي :

- (الصلاة يا مؤمنين الصلاة، الصلاة خير من النوم) ، فكان يسمعها كأنها

تصدر متقطعة من جُبٍّ عميق. ما إن اقترب الرجل من المعلم وهو يغالب أنفاسه حتى علم المسيري أن أمرًا جللًا وراءه فلم يحرك ساكنًا حتى قال القادم :

- (أعلمت يا معلم ما حدث ؟) فرد المعلم ببرود :
- (وما الذي حدث ؟) قال الرجل :
- (الولد ابن امرأة الأمس يمشي في حواري أرض شريف ووراءه المزمار البلدي والنقرزان وهو يتراقص حاملًا جلباب عبّوده وسرواله وملاث عمامته والأهالي يصفقون وله يهتفون).

حينما سمع حسنين ذلك أخذ رشفة طويلة مسموعة الصوت من كوب الشاي الذي أمامه وأخذ نفسًا طويلًا متصلًا من نرجيلته تضلعت به رئتاه ثم أخرجه من صدره متقطعًا متمهلًا فيه كأنما يخرج به همًّا ثقيلًا من صدره يستريح في إخراجه شيئًا فشيئًا. قال الرجل :

- (أقسمت عليك يا معلم ألا قلت لي أليست تلك فكرتك أردت أن ترد على عبوده ورجاله بصبي من صبيان الناحية) ، فابتسم المعلم غير نافٍ ولا مثبت وقال لنفسه :
- (لقد صدق ؛ ورب رمية من غير رامٍ فلقد أزال الصبي من على صدري حجرًا ثقيلًا بتصرفه هذا وبدا وكأني رددت على عبوده لا برجل من رجالي بل بصبي من صبيان الحارة، يا لعاره سوف يتجرس عبوده في البلد كلها ويبدو لدى الفتوات أنني كلت الصاع له صاعين، وليس من كالهما له رجل من رجالي وإنما عيل من عيال الناحية).

حقًّا فقد وفر الفتى على حسنين طريقًا وعرًا لم يحسب له حسابًا فقد كان دائمًا السجال بين حسنين وعبوده على طريقة الأدباتية حينما يتقاذفون القافية يتبارون فيها بينهم وصاحب البديهة الحاضرة والنكتة السريعة والقفشة الصاعقة والقفلة الحارقة هو الفائز وهو الذي يصرع صاحبه، ولطالما ما كانا يتقاذفان الحدث كما يتقاذفان كرة من النار لا يود أحدهما إلا أن يلقيها للآخر حتى يتخلص منها كما يود بل يتمنى لو أن صاحبه أمهله وقتا حتى يلتقط أنفاسه

فلا يردها عجلًا، ولكن الأمر لم يكن كذلك فمن يتأخر في الرد فكأنما بُهت أو فقد قدرته.

لم يكن ما بين حسنين وعبوده مشتبهًا بل كان مختلفًا جدًّا فحسنين كان فتوة لزمام يأهله الأهالي والحرفيون فكان عمله النهار وكان مجبولًا على الألفة وهدوء الطبع بينما عبوده كان فتوة لزمام ملؤه المواخير والخمارات وبيوت الريبة فلم يكن عمله سوى الليل ولم يكن يتعامل إلا مع أراذل الناس وحثالتهم لذا فقد كان مكشوف الوجه لا يستحي قط كما كان مجبولًا على أذية الناس.

دخل حسنين أرض شريف باسم الوجه بادي الشموخ والأنفة فقد رُدَّ لناحيته شرفها واعتبارها حتى ولو لم يكن على يديه فهذا قد يعرف حقيقته بعض أهل الحي ولكن لا يعرفه أهالي الأحياء الأخرى، أخذ الناس يسلمون عليه ويحيونه كأنهم يعتقدون فيه سببًا وراء ما حدث والصبي صاحب الفعل لا يستطيع أن يخبر أحدًا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه وإلا فقد حط من قيمة المعلم وهذا لايستطيعه هو ولا أهله كما أنه لو فعل وعلمت الحارة وما جاورها هل يستطيع أحد أن يواجه المعلم بذلك أو أن يبدي بحضرته مثل ذلك ؟ لا بل إن سيرته سوف تجعلهم يكذبون من يدعي أو يحط من قدره.

عاد حسنين إلى عادته يقضي الليل عند ينّي رائق الصفو رقراق المزاج مرجئًا التفكير في انتظار رد الدخاخني وكيف يكون ثم رفع كأسه وأهوى محتواها في قرارة فمه ثم وضع الكأس فارغة على النضد قائلًا لنفسه :

- (ولم العجلة في التفكير إن عبّوده قد يحتاج دهرًا حتى يستفيق من تلك البصقة التي هوت على قفاه، إن كان الكف السابق قد سبق فإن الكف اللاحق قد محق)، ثم قال بصوت مهتز الأوتار في خطابة تهكمية ثم في غنائيته ساخرة :
- ( الليل خمر وغدًا أمر، عيني على ينّي وسكرة ينّي ...).

**************

## ثالثًا

# أخيرًا وربّما ليس آخرًا

بلغ الخبر عبّوده فاستشاط غضبًا ؛ فقد انقلب السحر على الساحر ولدغت الحية الحاوي وأتاه الأمر من مأمنه والشر من مكمنه فهذا ما لم يكن قد أعد له عبوده عدّته ولا جرى له على بال، أراد عبّوده أن يتكئ على خصمه القريب ليتئد خصمه البعيد، أراد أن يفعلها مع حسنين حتى إذا جبن عنه ارتدع عنه جابر الإمبابي فتوة روض الفرج، وبين الرجلين منافسة ملؤها الإحَن والمشاحانات فبينهما حلبة صراع خاصة بعد أن مال الزمان بحانات وملاهي روض الفرج نحو الأزبكية وصارت مراتع عماد الدين منجذبًا لفئة أيسر حالًا من مرتادي روض الفرج وأصبح روض الفرج ملتقى للسوقة والطبقات

الدنيا والتي تجلس أكثر مما تدفع ناهيك عن العراك الدائم كل وقت وحين فيلجأ أصحاب المواخير والملاهي للاستنجاد بجابر ليؤدي دوره.

قلّت الموارد فقلّ معها المعلوم الوارد من أصحاب الحانات وساء فساء معه خلق جابر وضاق فصبّ جام غضبه على عبوده لأنه الخصم المستفيد من هذه الحالة وتلك الاستحالة وكأن الزمان مال بجابر ليميل مع عبّوده. لم يجد جابر بدًّا من التفكير في مضايقة عبّوده وجره نحو عراكه حتى ينقل ذلك العراك نحو ميدانه مثيرًا في الأزبكية وعماد الدين هرجًا ومرجًا إما أن يدفع بمرتادي الأزبكية ويرتدوا عن عماد الدين مرة أخرى إلى روض الفرج أو أن يُسحق عبوّده فيكبر جابر في عيون أصحاب محال الأزبكية فيرث فتوة الأزبكية عن عبّوده وهو حي فيتبدل الحال.

رصد رجال جابر أحد صبيان عبّوده يعتاد ارتياد إحدى مواخير روض الفرج حبوا وراء إحدى الغانيات فترصدوا له داخل الماخور واحتكوا به وأهانوه عمدًا أمام رفيقته ثم ما لبث الأمر أن تحول ضربًا مبرحًا موجعًا فخرج يرسف في آلامه يعالج من ورائه سخرية وسبًا فيه وفي معلمه وزمامه.

عاد الرجل لمعلمه عبّوده فروى له ما جرى فصفعه غيظًا وبصق في وجهه متهمًا إياه يركض وراء شهوته غير مُعَقِّب.

بات عبّوده ليلته فلم ينزل لمباشرة عمله كما اعتاد وترك لتفكيره حبالًا لا تنتهي وأخذ يحدث نفسه :

- (ماذا أنا بفاعل ؟ إن الإمبابي يرمي إلى جر رجلي في أمر أنا في غنى عن عواقبه يخرب به البيت وينكبّ الزيت، وجابر اليوم أشر منه بالأمس فقد مس الأمر رزقه، ماذا أنا بفاعل ؟ أنا محتاج لأن أصرف عيون الناس وآذانهم عما حدث الليلة بأمر أكثر جللًا).

شرد عبّوده في حباله حتى ألقى الشيطان في أمنيته أن يضرب البهيمة المربوطة فتخافه السائمة، قال :

- (أنا إن صفعت حسنين صفعة جرى ذكرها في الأزمة فتتناقلها الألسنة ناسية حادثة اليوم لذا يجب أن تكون صفعة مهينة حارقة أكبر من ضرب رجل من رجاله وإن تطور الأمر لعراك سوف يشتد به عودي في الأزِمَّة كلها).

برقت في رأسه فكرة خبيثة من جهنم رمى له إبليس بها، وكان من الأمر ما كان. الآن وقد حدث ما حدث فقد بات حتمًا على عبّوده أن يشرع في تنفيذ ثانية خطته ؛ عليه أن يتعارك مع حسنين حتى ينسخ بعراكه حدثين لم تجر عاقبتهما في حسبانه فانطلق غاضبًا قاصدًا خمّارة ينّي مشرب حسنين المسيري. دخل عبّوده فوجد حسنين يجلس وسط صحبة من رجاله وندمانه وهم يسمرون طربًا وفرحًا وأكواب الراح تغدو في راحاتهم بطانًا فتنسكب في بطونهم سكب الظامئ لها ثم تروح خماصًا لتملأ من جديد والبهجة وضحك الثمل لا يفارق أساريرهم. لم يحرك حسنين ساكنًا لمقدم عبّوده بل كل ما قاله:

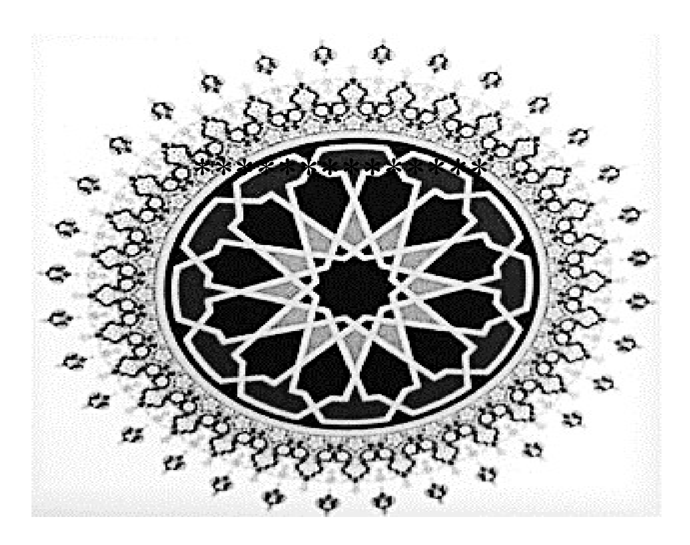
- (أهلًا بالمعلم عبّوده، كأسًا يا بنّي)، رد عبّوده في حنق :
- (لا أهلًا ولا سهلًا، خلاصة الكلام، أنا في انتظارك ورجالك في شارع المنصورية غدًا صباحًا)، ضحك حسنين ورد ساخرًا :
- (أو تريد عراكي ؟)، قال عبّوده:
- (نعم، أتلبي أم تجبن) عندها ضحك حسنين بصوت عالٍ ثم تجرع كوبه جرعة واحدة ووقف ثم دنا منه وقال :
- (أتعرف يا عبّوده ؟ أتعرفون يا رجال؟) فقال من حوله :
- (إيه...)، فنظر إلى عبّوده وقال :
- (لا أجد لي ولك مثلًا إلا كأسد لقي خنزيرًا فقال له الخنزير :
- (انزل فنازلني وبارزني) فقال له الأسد :
- (ما أنت لي بكفء ؛ فإن نالني منك سوء كان ذلك عارًا عليّ، وإن قتلتك قتلت خنزيرًا فلا ينالني من ورائك حمد ولا مدح، وليس لي في قتلك خير ولا فخر)، فقال له الخنزير :
- ( إن لم تنزل فتبارزني لأعرفنَّ السباع أنك قد جبنت عني)، فقال الأسد:
- (احتمال عار كذبك أهون عندي من نجاسة يدي بدمك))، اضطرب عبّوده من مثل حسنين ثم قال :
- (إذن فقد جبنت عني والرجال شهود، سأفضحك في أزِمّة البلد)، فضحك حسنين بهستيرية ملفتة وقال :

- (إذن فقد جعلتني أسدًا وجعلت من نفسك خنزيرًا).

امتلأت الحانة بالضحك، استدار عبّوده مغادرًا الحانة ووجهه يَرْبَدُّ ويمتقع غيظًا، مضى وهو يجرر أذيال ضحك الحضور في أثره. خرج عبّوده فما أخذت تخفت موجة الضحك حتى قام أحد السكارى رافعًا كأسه وهو يهتز ثملًا ويغني طربًا:

- (عيني على ينّي وسكرة ينّي) فشرع كل الحضور يرددون في صوت واحد معه:
- (عيني على ينّي وسكرة ينّي).





# كافيتريا صَاْق

(مَا قَادَكَ مِثْلُ الوَهْمِ).

ابن عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ

ما أسهل ألم الخُمار قبل الإلمام بالخَمر ولكن ما أصعبهما بعدُ، وما بين التَفَلُّت والتَحَرُّر إلا فينةٌ يَسقطُ فيها احترامُ قاعدةٍ، ويُهْدَمُ فيها إيمانٌ بقانون، ويُتَخَلَّىْ فيها عن مبدأ، وما خرجت ذلك اليوم من الكلية إلا مغالطةً في حرية أزعم افتقادها وكبتٍ أدَّعي معالجته. خرجنا أنا وصديقي وقد تركنا محاضرتين زاعمين لأنفسنا أنهما ليستا بمهمتين، وأننا حينما نمضي لبيوتنا مبكرًا سيُتاح لنا وقت أرحب للمذاكرة والتحصيل ونُعَوِّض أضعافَ أضعاف ما فاتنا في هاتين المحاضرتين التافهتين، وأول الخطأ تبرير، مضينا وصديقي بسيارته نغالب نفسينا بضحك هيستيري كأننا فررنا من سجن غفل فيه عنا حراسه والحق أننا فررنا من أقفاص صدورنا ووراءها قلوب تنبض ويدق ناقوسها بدقات تخز في الضمير.

لماذا يحلو الخطأ وتتحلَّى الخطيئة، لماذا يسهل الخطأ ولو كان صعبًا، وتذلله النفس ولو كان حَزَنًا، وتميل إليه ولو كان وَعِرًا طريقه، وتتعاهده ويتحدّث به الخاطر ولو كانت مخامرته ومعاقرته حلوة تخالطها مرارة تكدر الاستمتاع به وتنغِّص التلذذ بوقته فيظل في خلفية صورته أرقٌ يخالطه قلقٌ وراء مشهده، يظلان دائمين متصلين، وهنالك عُقْبَىْ مُنْتَظَرةٌ غير محمودة، والنفس منها على يقين، فما اللذة والتلذذ في ذلك ؟

تلك هي الأسئلة التي تظل تخالج نفوسنا ونحن نَهِمُّ بخطأ أو نَعْزِمُ على خطيئة أو نميل إلى اقتراف إثم منذ صغرنا وحتى مشيبنا، ذلك هو المعنى الذي بداخلنا والذي تتغير سبل التعبير عنه بتغير أعمارنا وتطور لغتنا ونضج

حديثنا النفسي، بدءًا من الكذب في الصغر وتَسَوُّر أسوار المدرسة، وحينما نشب عن الطوق ويأخذ بمجامع نفوسنا الرَهَق والنَزَق ويتطور معنا الخطأ والتَلَصُّص بالأذن حينًا وبالعين أحيانًا، وباستراق السمع والنظر فيما لا يرضي الله والناس. ثم نكبر وننضج فيستحيل استمراء الخطأ استحلالًا وتبريرًا نكابر به نفوسنا بالدلائل والشواهد وبتعيين الأعيان والأمثال فيُبَرَّر الكذب ويُزيَّن النفاق ويُجَمَّل الرياء ويُعَذَّر الحرام، وفي كل حالٍ يساق ألف شاهد ويُدَلَّل بألف دليل.

وعرجنا في سيرنا على إحدى الكافيتريات القريبة من الجامعة لعلنا نتبلغ بشيء نأكله وفي داخل كل منا داعٍ من الخبث يدعوه أن نجد فتاتين فرّتا مثلنا من سجن الدراسة فنقضي معهما وقتًا وإلا فَلِمَ فعلنا ما فعلناه؟!

وما إن وصلنا وترجَّلنا حتى وجدنا طلبتنا وبدأت تُتَبَادل نظراتٌ مُخْتَلَسَة كأنما تَتَحسَّس في الظلام فإذا ما أَمِنَتْ الطريق ووجدتَه أمانًا استحالت إلى نظرات تقييم وتثمين تُمَشِّط ما تراه من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى من القدم إلى الرأس ومن الرأس إلى القدم، تتعمق النظرات ويبدأ التبسم أمارة على القبول في انتظار الأسباب الملفقة للكلام ثم الحديث، وما كان أيسر ذلك على صديقي وعلى جرأته فما كان أسهل عليه من تلفيق أسباب التعارف وتداخلنا في الحديث وتشاركنا الطعام والشراب. استرسل الحوار التافه وكلما بدت تفاهته واستمرت عظم الإحساس بالذنب، ظللت على هذا حتى فقدت شهوتي في الكلام ولكزت رجل صديقي للقيام وهو يستبطئ جلستنا حتى

قالت إحداهما إنهما عادةً ما يترددان على الكافيتريا المقابلة وأشارت إليها بيدها وهي تردد اسمها : (كافيتريا صَأْق) فنظرنا تلقائيًّا تلقاء موضع إشارة يدها لنرى ما تشير إليه فما كان منا إلا أن قمنا من مكانينا في هَبَّةٍ واحدة نستأذن في الانصراف لارتباطنا بامتحان في محاضرةٍ مهمة، وودّعناهما وانصرفنا حينما بلغ الإحساس بالذنب عندنا مداه فما يستحق هذا ما بعنا الدراسة اليوم من أجله ؛ فقد كان اسم الكافيتريا التي أشارت إليها (صادق) ولكن عوامل الزمن والإهمال قد أسقطت الدالَ. انطلقنا بالسيارة مسرعين مستغرقين في الضحك وأنا أقول له :

- (قُدْ بسرعة يا أبا الطَمْحَان القَيْنِيّ في ليلة الدير)، فردد متعجبًا مستفهمًا :
- (أبو الطمحان القيني في ليلة الدير ؟! وما أبو الطمحان القيني هذا، وما ليلة ديره تلك ؟!) قلت :
- (نزل أبو الطمحان القيني في نهار رمضان بديرانية فأكل عندها طفيشلًا - أي مَرَقًا - بلحم خنزير، وشرب من خمرها، وزنى بها، وسرق كساءها، ثم انصرف عنها وقد وقع في آثام أربعة)، فقال :
- (معاذ الله ، أتشبه ما فعلناه بفعله) ؟ فقلت :
- (إذن فامضِ بنا يا "صاق")

*************

# التّوابل الشّريفة

(أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَاْ أَنْتَ لَهُ طَاْمِعٌ).

ابن عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ

## توطئة:

إلى صديق بسالفة الوداد؛

لَكَمْ طَوَّفتْ عيناك بتلك المعالم، وأنت فيها جَدٌّ حائرٌ حالم، رَضِيَتْ نفسُك أم أرضيتَها بما بدا لك منها ؛ إذ بدا لك منها جانب، وخفيت عنك منها بعض جوانب، فهاك دونك أجلو لك بعض تلك الجوانب.

انتبهت في متكئي على صوت داعٍ من دعاة الفجر الكاذب وأنا ممسك بيديّ ورقًا سميكًا نسجه مكتوبًا بخطي ورسمي فأخذت أتصفح ما فيه فإذا به ممهور بآخرته بخاتم يحمل اسمي فشرعت أقرأ ما فيه فإذا فيه:

" قضينا أيامنا الثلاثة الأولى في ضيافة القوم فأحسنوا ضيافتنا ورفادتنا ورحنا نسيح في بلدهم الجميلة نتعرف على أحوالها فكانت كمحارة ترقد على رمال بحر عطفت عليها أمواجه برفق، وأحاطتها مياهه إحاطة شوق، وغمرتها غمر حُنُوٍّ وحب، وجمشتها مداعبةً فاهتزت لها طربًا. بلد جميل لا ينتقل أهلوها على ركائب الخيل والبغال والحمير فدروبها ليست بحزن وإنما هي سهل كلها ؛ فدروبها ليست بحصى ولا ثرى، وإنما سبل من ماء جرى . ركائب القوم على زوارق كثمار الطلح المنضود بغير أشرعة، يمخر ملاحوها عباب الماء بأعواد كالحراب. وإذا ما حلَّ المساء حَلا السمر والغناء ورقصت حورياتهم رقصًا بديعًا وتبادلوا الأشعار مطارحةً ومعارضةً واستجازة. فلما كان يومنا الرابع جمعنا المقام بشهبندرهم(1.أ) وصفوة تجارهم ورجالهم، وعرضنا بضاعتنا من المطالب

السلطانية السنية، ولحرص سيدي الأمير تغري بردي(2.أ) على ألا يؤوب من تلك السفارة صفر اليدين خاوي الوفاض أوكلني إلى أعتابكم العلية نائبًا عنه حتى نستضيء بآرائكم السامية السنيّة.......... ".

وبينما أنا منغمسٌ فيما أقرأ إذ بصوت زوجي من حجرة مجاورة تحدّث فتاةً قائلةً لها :

- (حينما يصحو سيدك أخبريه عن أمر رسول ديوان الإنشاء وأن كبير المهمندارية(1.ب) بالدست الشريف(1.ج) يجدُّ في طلبه منذ العشاء الآخرة)، فانتفضت مسرعًا أتهيأ للقائه مرتديًا ثيابي في عجالة على أمل إدراك صلاة الصبح بمسجد القلعة(3.ج) فإن قابلت الرجل في المسجد فبها ونِعْمَتْ وللمسجد حرمة وهيبة تأسران مرتاده فيُلتَزَم الأدب فيه، وإلا ففي الديوان فيخلع كل لصاحبه عما بداخله. وخرجت مترددًا أأهيب بأحدهم فيجهز لي فرسي فالطريق من مسكني بخط بئر الوطاويط(3.ب) حتى أسير مصعدًا نحو القلعة ليست قصيرة حتى أقطعها سيرًا في مدى الزمان بين الندائين إلا أنني أغضيت عن ذلك مخافة أن أفوّت فرصة المسجد ظنًا أن قدمي سيسعفان فيسبقان منفلق عمود الصبح فيقطعان الزمن بين الندائين، كما أن الطريق خالية وقد خفَّتْ الرِّجْل فَحَسَسْتُ خطاي مسرعًا وأنا كالدّابة لم يُعَلَّق لها وصاحبها يلهبها حثًا على السير وهي منهكة تخطو بين السير حينًا وبين الخَبَب حينًا، وبين الاثنين لهيب من سوط صاحبها، فلمَّا بلَغَتُ خَطَّ صَلِيْبَة طُوْلُوْن كان السَّقَّاؤون قد شَرَعوا في الظهور ماضين تجاه قناطر السِّبَاع ليَرِدوا الخليج

حتى يدركوا الماء قبل أن يُكَدِّر صَفْوَه مجرى المراكب و حركةُ النهار فيملؤوا قِرَبَهم ويغدوا بها على الأَسْبِلَة والدُّوْر والْمَحَال المختلفة ؛ فمنهم من يُشَرِّق تجاه سبيل قايتباي، ومنهم من يغرِّب ناحية سبيل صَرْغَتْمَش، ومنهم من يتجه صوب بركة الفيل قاصدًا سبيل أَزْبَك اليوسفي بدرب أَزْبَك، ثم تبدأ رحلة عملهم التي لا تنتهي جيئةً وذهابًا بين الأَسْبِلَةِ والدُّور إلا عند الغروب، يقطعون السبيل التي تقطعها الشمس بين المشرقين – بين شروقها وغروبها - مرةً واحدة إلا أنهم يقطعونها مراتٍ ومراتٍ ؛ يملأون خلال رحلة يومهم الشاقة قِرَبًا فيغدون بها خماصًا ويروحون بها إلى الدور والمحال بطانًا، يملأون ولا يَمَلَّوْن ويُفرِغون ولا يَفْرَغون، وكأنهم يبعثون بتلك القِرَب في بَرِّ مصر الحياة مِرارًا، أليست الماء سر الحياة وهم سبب لذلك السر، فواعجبًا أن يكون سبب سِرِّ الحياة على تلك الحالة من الشقاء الدائم والبؤس المتصل؛ هيئة رثة زريّة، مع أخفافٍ بَرَاها السعي، وأقدامٍ أَدْمَاها طُوْلُ السير، مع وجوه هاشّة بِاشّة ، وأَلْسِنَةٍ على طُوْلِ عَمَلِها لاهجة بذكر الله.

ومضيت حتى كان مسجد ومدرسة(3.ج) الأمير تغري بردي(2.ب) الدوادار فجرى بذهني من تسمى بهذا الاسم فعددتهم فوجدتهم جميعهم فضلاء مخلصين بدءًا من ابن تغري بردي الابن الدوادار(1.د) صاحب هذه البناية وأبي المحاسن(2.ج) صاحب التاريخ حتى انتهيت إلى سيدي تغري بردي الترجمان شيخي وأستاذي وصاحب الفضل عليّ، ما أبرع هذا الرجل في حرصه ودأبه على عمله لما فيه خير البلاد والعباد، فليس في السلطنة من هو

ألسن وأفصح منه باللسانين الرومي والروماني بل والعربي والفارسي، وليس ثمة من هو أقوم بحجته وألحن منه في مخاطبة القوم، لست أنسى سفارتنا الأخيرة تلك وقد تقدم الرجل فأحسن التقدمة بقوله : (إنا وإياكم لكرجلين في زورق واحد جرت ريح بما لا تشتهيه شراعه فإن لم يتآزرا غرقا، ولست بأعلم منكم بما حلَّ بكلينا فقد ظمئت الأسواق من حولنا وخَلَت من التوابل السلطانية المجلوبة من كَنَور وكُوشِين(3.أ) فَعَلَتْ أسعارها وكل عزيز غال، بينما غرقت الأسواق من حولكم وتَخِمَت بالعروض الهندية من ثغر لشبونة(3.أ) فزَلَّت أسعارها وكل مرتخص هين، وها هم هؤلاء البرتغال قد تمكنوا من جلب توابل الهند وبيعها في عقر داركم بأرخص مما تبيعون فكلانا خائب خاسر، فعلينا ألا نقف وقوف الخامل الخامد كما يجب علينا أن نأتلف ونتحالف متعاونين حتى تنكشف تلك الغمة وتنجلي تلك المُلِمَّة)، وما كدت أبلغ الشيخونية حتى رأيت عدة عربات مختلفة الوجهة والاتجاه خرجت عربات المزابل قادمة من تلقاء سويقة منعم(3.ب) تقابلها عربات أخرى تحمل قدور الفول قادمة من يمنة ويسرة وأمام لتبدأ جميعًا في الاختلاف عند صليبة طولون. أما عربات المزابل فتبدأ رحلتها محملة بالزبل والسرجين قادمةً من كوم الجارح(3.ب) وتستمر في سبيلها فتلقي بالأحمال عن كهلها في المستوقدات الملحقة بها الحمامات فيستحيل ذلك الزبل وقودًا تسوَّى به قدور الفول، وماءً حارًا وبخارًا متراكبًا يملأ أركان الحمامات ؛ يفرغ بعضها حمولته عند حمام شيخون(3.و) بجوار الخانقاه، بينما يستمر بعضها قاطعًا الصليبة لتفرغ حمولتها لدى حمام الفارقاني(3.و) عند دار طاز(3.د) ثم تستمر بقيتها سالكة تجاه

حدرة البقر(3.ب) وباب زويلة(3.ب) فتفرغ عند حمام قتّال السبع(3.و) جوار جامع قوصون(3.ج). أما العربات المحملة بقدور الفول فتمضي مخالفة وجهة الأخرى حيث تبدأ رحلتها من تلك المستوقدات مختلفة إلى المحال والمطاعم والخانات والربوع . ولما تأملت تلك الأمشاج المتراكبة المتداخلة في حركة العربات بوجهاتها المتباينة واختلاف مستقرها ومستودعها قلت سبحان الله ما أجمل أن تولد الحياة من الموت يحيا الإنسان فيطعم ويغتسل لينشط من فضله وزبله فسبحان من يخرج الحي من الميت.

حتى بلغت المنعطف عند الخانقاه الشيخونية(3.ج) فلما توسطت الطريق بين البنايتين كان جهد السير قد بلغ مني مبلغه فأرفقت برجلي وريثت من خطوي فنقل الهواء المتخلل من خلل وفُرَج جدران الخانقاه لمسمعي دويًّا كدويِّ النحل تسرّب لأذني من أصوات الطلبة في خلاويهم بالخانقاه، لا تستطيع أن تميز من أصواتهم إلا لفظ الجلالة وحروف الجهر والنبر وإذ بالمسجد(3.ج) عن يساري وقد شرع مرتادوه في المجئ وأخذ الجسد ينفث عن نفسه من جهد الخطا بقطرات من عرق علت على جبهتي كما يعلو حباب الماء وما لطف منها إلا حينما هبّت عليّ نسمات الفجر بسحر أثرها فتذكرت بهذه القطرات وتلك النسمات وهاتيك الأصوات أيام الطلب و الدرس بالشيخونية وكيف كنا نُجِدُّ في السير حتى ندرك مكانًا مقدَّمًا في حلقة الدرس وما كان يخفف من حرارة السير إلا وقوفنا نستقبل النسيم الهابط من تلقاء

القلعة حينها كنا نسبل جفوننا تلذذًا بتلك اللحظة، ما أجمل تلك الأيام وأبردها على قلبي، لو أنها عادت، ولكن هيهات هيهات فليس بعد الفوت عود.

صعد بي الطريق قليلًا قليلًا بعد الشيخونية حتى بلغت ميدان الرميلة(3.ب) فصرت مواجهًا للقلعة وقصرها الأبلق(3.د) ومن فوقه لاثت سحب الليل وقد غزاها المشيب تغالبها سحب الفجر وقد أخذت في النهوض.

وما بلغت باب المدرج(3.د) حتى أخذ دبيب كدبيب النمل يدب في ساقي من جهد المسير. أدركت من الصلاة القنوت وما تلاه ثم أتممت وختمت، ثم لمحته فانتظرت حتى قام السلطان(2.د) مغادرًا، فتوجهت ناحية الرجل فاستقبلني بابتسامته الخبيثة مسلّمًا :

- (حمدًا لله على سلامتك والعود أحمد، متى وصلت؟) فتعجبت من سؤاله، ألم يرسل في طلبي منذ العشاء كيف يفعلها إن لم يعلم بقدومي، هو كما هو لم يتغير، كعادته دائمًا يسأل عما يعلم كأنه يتحيّن الإيقاع وسقطات الألسن وزلاتها فيتخذ منها خيطانًا ينسج منها شباكًا وأشراكًا يوقع في حبالتها من يهم به، إذن فقد عدنا للخبث والخبائث ؛ فاللهم العوذ بك منها. أجبته :
- (الحمد لله، سلّمك الله)، ثم اتجهنا تلقاء الباب وجرى الحديث بينما نتابع السير، فسأل: (ماذا فعلتم، أما ترى أنكم قد أطلتم في سفارتكم تلك، أم تراكم قد استمرأتم حياة البندقية(3.أ) ورغدها). فأسررت في نفسي وإن لم أبدها له :

- (ويحك ؛ بل أنت الذي استمرأت رغدها على بعدها فقد بدت عليك نضرتها وندرة دنانيرها ؛ وللدنانير البندقية نضرة وندرة وثقل ضافٍ، وقد انتفج عطفاك وانتفخا من أثر البهار السلطاني والتابل الشريف، كيف بك وقد ظللت تلاحق وتنافق، وتخدع وتخادع، وتداهن وتهادن حتى حططت علينا من علٍ وقد كنتَ شاردًا تنعب خارج السرب وأخذت تتزيَّ بزي أهل الإنشاء ولست من إخوان هذا الطراز حتى لحقت أو أُلحقت بهم فمثلك فيهم كإبليس في الملائكة ؛ فيهم وليس منهم، فمتى تلحقك اللعنة وتخرج من بينهم ... متى ؟)، كنا قد بلغنا مضيفة المهمندارية بالديوان فرجَّع السؤال:

- (ماذا فعلتم؟ وأين رسائلك المحبرة في الزيارة، أم تراك قد نسيت أنك تباشر العمل خلفي) . فقلت غامزًا إياه:

- (لا لم أنس، كما لم أنس أننا نعمل جميعًا خلف الأمير كاتم السر)، فامتعض وقد أصابت الكلمة منه مقتلًا ورد بتبسُّمٍ خبيث ومُعَرِّضا بالأمير :

- (أجل كما أننا نعمل جميعًا خلف السلطان)، فتابعت :

- (عرضنا عليهم المطالب السلطانية، فتكلموا بكلام سمعنا به من قبل على لسان سانوتو وتالدي(2.هـ) ومن بعدهما على لسان سيجونديو(2.هـ) في سفاراتهم لمصر : من نحو ما تتعرض له تجارتهم من خسران من أثر وصول البرتغال لمنابت التوابل وجلبها للأسواق حولهم وبيعها بثمن بخس، وإنهم ليأملون أن نقف صفًا سويًا فنواجه البرتغال معًا على أن نخفض المكوس والضرائب المرسومة على التوابل الشريفة حتى يستطيع تجارهم

جلبها وبيعها بأسعار تغالب أسعار البرتغال كما يطلبون كنف السلطان في أن يحوط تجارتهم وتجارهم بالأمان الشريف في الموانئ السلطانية) . ثم أردت العبث به وإثارة فضوله وطفيليته فزدت :

- (إلا أنني التفتُ لشيء جديد)، فانتبه كأن ما قلته آنفًا ليس عليه بجديد وأن ما سأقوله هو الجديد عليه، وهو يجيد قنص وسلب ثمرات أفهام غيره وفض أبكار أفكار سواه سيما من يعملون خلفه كما يود أن يعبر دائمًا حتى يتحين ملائم الوقت محاولًا إيهام العلية السنية بتلك الأفكار والثمار كأنه صاحبها. هز رأسه مستوضحًا فقلت :
- (ألا وهو أننا استبدلنا موقفهم بموقفنا واستبدلوا هم موقفنا بموقفهم) قال :
- (ماذا تعني؟)، فقلت متعمدًا اللغز في الكلام واللحن في القول :
- (أتونا وما أتيناهم وعرضوا وتدللنا فيما عرضنا عليهم، ثم أتيناهم وما أتونا وعرضنا عليهم ما تدللنا فيه من قبل. إلا أنهم ربطوا على عرضنا بعرضهم ووضعونا وحدنا في مرمى سهام عدوهم وعدونا)، فترنح عقل الرجل مما سمع واستكبر أن يسأل مخافة أن يظن به جهل فقال :
- (يبدو أنك لم تسترح بعد، عد لبيتك ولنلتقي عند العصر).

آلآن تبدي همك واهتمامك ، تتحدث عن الأحوال وصلاحها وتعير مال المسلمين انتباهك، أليس أمثالك من الذين حملوا السلطان على أن يأبى ما جاء به أحد الرجال البرتغال، حينما أراد ذلك الرجل أن يبيع بارود القتال فما وجد حقدًا منه على قومه ومكسبًا جمًا غير أن يبيعه لخصومهم فقد اغتنم ذلك

الرجل فرصة وجود الراهب موريس(2.و) راهب جبل صهيون في سفارته التي بعثه فيها جناب السلطان الغوري للقاء البطريق وملوك وأمراء أوروبا لحثهم على منع البرتغال من مهاجمة مصالح السلطان بالهند فدله الراهب على سبيل الترجمان السلطاني تغري بردي خير مقنع للسلطان فلما التقى به وتحمس الأمير للأمر عرضه على السلطان ورسم له ما يمكن أن يكون لذلك من أثر على البرتغال إذا ما علموا فلسوف يلقى الرعب في قلوبهم ولربما انصرفوا عن طرق تجارتنا وخلوها لنا و تحمس السلطان بتحمس ترجمانه وكاتم سره، فلما عرض السلطان على بقية رجاله اشمأزوا ونفروا مظهرين الخوف من سوء العاقبة وعدّوا ذلك خروجًا عن الجادة وحَيْدًا عن السنة النبوية المشرفة ؛ قائلين :

- (لا نترك سنة رسول الله سيفًا ورمحًا لنقاتل بالبندق والبارود) .

وليس الأمر كما يزعمون سنة وتسننًا وإنما تخوفوا من خروج المال لوجهة غير وجهتهم لذا زينوا وزخرفوا له أن يحتكر الجناب السلطاني تجارة التوابل والبهار وأن يفرض عليها مكوسًا جمة بحجة أن عائدها يعود على بناء السلطنة في بري مصر والشام وإعداد الجيش لإرهاب البرتغال وبني عثمان، وبالغتم في الأمر فأحطتموه بهالة وهيلمان تنخفض دونه الرؤوس وتنكسر له النفوس وتنقاد له العامة خاضعة لقدسيته فقد صيرتم التابل والبهار وهو من رفه الطعام جانبًا شريفًا وجنابًا سلطانيًا فوسمتوها بالتوابل السلطانية تارة وسميتموها التوابل الشريفة تارة أخرى حتى تصير مرهوبة الجانب فتحترم كأنها إرث نبوي وأثر

شريف. آلآن تبدي همك واهتمامك تتحدث عن الأحوال وصلاحها وتعر مال المسلمين انتباهك وأنت ممن غنموا من بيع الدنانير السلطانية وتهريبها للفوز بالدنانير الأفرنتية والبندقية المشخَّصة الضمينة الوزن، أيكون ذلك سببًا في حقدك على الأمير الترجمان فليس لدي ريب في أنك قد علمت بأنه هو الذي أوعز للسلطان بمرسوم يوقف به التعامل بالدينار البندقي. يا ربِّ أمثل هذا يجري عليه صفة المهمندار التي رسمها التاج السبكي فيما أُوصِينا بدرسه وحفظه :" أن يعتمد مصلحة الإسلام، ويُرهب القُصَّاد، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة بأسهم، وعظيم سطوتهم، واتفاق كلمتهم، وقيامهم في حَوزة الدين وذَبّهم عن حريم الملة الإسلامية وحفظ النظام، وأن يُنهي أمور القُصَّاد إلى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة، ورُبّ من يتعين عليه المبادرة إلى إكرامه، ومن يتعين عليه الكف عن إعظامه، بحسب ما تقتضيه الحال" آه لقد صدق أبو الطيب :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنَّه ضحكٌ كالبُكـا

بها نَبَطيٌّ من آهل السَّـواد يدرِّسُ أنسابَ أهلِ الفَلا

تركت الرجل والحيرة تتخطفني، ماذا يقصد ذلك الرجل بتعريضه بالكلام عن الأمير الترجمان، أيستطيع فسل نذل مثله أن يثني الأمير عن موضعه أو أن يلقي في نفس السلطان منه شيئًا وهو المقرّب عنده الأثير لديه....ألم يثن عليه السلطان في مرسومه الشريف الممنوح للقنصل والتجار الفرنتيين ثناء عَدَّه مَنْ في قلبه مرض مجاوزة للقصد وخروجًا على العادة في المكاتبات

السلطانية و الأمانات التجارية إذ وصفه بعقد من المترادفات : المجاهدي المؤيدي الذخري النصري الأوحدي الأكملي الأعزي الأحضي السيفي عمدة الملوك والسلاطين، ودعا له بأن يديم الله سعده. أليس في ذلك حصن وأمان لأن يظل الأمير بمنأى عن وساوس الشياطين ودسائس الدواوين فيعمل لما فيه إصلاح الحال وصلاح المآل. ترى ما الذي يحاك للرجل في الخفاء، وهل يدبر له أمر بليل فيتعرى من حصن السلطان وحماه إذا أقبل نهار، لا ... لا فالسلطان يثق فيه ثقته في حلته وجبته ويأنس له أنسه لقبائه وردائه، لكن ماذا لو وسوس له شياطين الإنس بأن تلك الحلة مسمومة، حينها لن يثق السلطان إلا فيمن يؤمنه على حياته ويؤمن له سلطنته، والعهد عهد تربص وترقب - فبنو عثمان شرقًا والبرتغال بحرًا، ترى هل يفلح هؤلاء الأبالسة في تكدير صفو السلطان تجاه الرجل وهو الذي لقبه من قبل بلسان الممالك،ولسان ملوك الأمصار، ماذا يمكن أن يلقي هؤلاء الأبالسة في أمنية السلطان فيغيرون دخيلته على ترجمانه، هل يقولون له :

- (قد كان واجبًا عليه أن يبلغ جنابكم الشريف ما دار بينه وبين البنادقة بنفسه وشخصه إلا أنه أبى واستكبر فأرسل لجنابكم العالي خاصكيًا (1.هـ) نائبًا عنه)، أم يوغرون صدره بأنه يطيل المقام عند القوم فيبدو أنه قد مالأهم على حساب أهله وعشيرته.

وأُبتُ منهكَ الجسد واهن العزيمة لا أصطبر مع حالي تلك إلا على الراحة والخلود للفراش فأنا لم أهنأ منذ إيابي من سفري سوى سويعات قليلة قضيت

جلها في تحبير رسائل السفارة فضلًا عما أصابني من جراء الحوار العقيم والتعريض والتلميح المستفزين من المهمندار، والعقل إن جَدَّ في غير جدوى خَضَّ الجسدَ معه خضًّا فيترك بعضه جامدًا ويترك بعضه سائلًا خائرًا كما تخضُّ الفلاحات اللبن ليبدو المخض عن الزبد. وأخذت في النزول من الطريق الذي صعدت فيه تجاه بيتي ولكن في وقت ليس بالقليل أفكر فيما يدور في الديوان ؛ فالأمير نفسه غير مأمون على عقباه فما بال صعلوك مثلي لا مال له ولا سند . أنا لا أنكر الفضل وأهله فقد دخلت هذا الديوان لأعمل بريديًّا ثم استطعت أن أصير مهمندارًا مكافأة لي على مقدرتي على ترجمة رسالة وردت للديوان باللسان الرومي ورأوا لذلك أني أهلٌ لاستقبال القناصل والضيفان والسفارات، فلما استوثق الأمير الترجمان من تمكني في عملي اصطفاني من بين كتَّاب الديوان لأكون خاصكيًا له في سفارته تلك، ثم رفع من قدري فأوكلني نائبًا عنه لإبلاغ رسالته للسلطان، ولكن ماذا لو نفخت في ذلك الجهد نيران الحقد والحسد فإما أن أُوْضَعَ في هامش المتن أو في حاشيته، وإمّا أن ينالني دَنَسُ المفسدين ونَجَسُه، فما الذي يضطرني إلى ذلك الهوان ؟ هل العيش ؟ لا فأنا أتقن أمورًا أخرى، ولدي مهارات عِدَّة لو استعملت بعضها لكفتني مؤونة يومي ومخافة غَدِيْ، ها قد عدت أسائل نفسي وأجهدها في محاولة الرد على هذا السؤال، لِمَ لا أريحها من هذا العناء وأَنْفُضُ عنها تلك الأكوام من تراب الديوان وشيعته، ثم أعود فأقول وهل الأمر متروكٌ لهم برمته، كيف أضيّع أمانةً عُرِضت على سمواتٍ وأرضين فأشفقن منها وأَبَيْنَ حملها فوقعت على كاهلي، أنا إنْ ضَيَّعْتُها فقد عَرَضْتُ نفسي علامةً على قيام الساعة، ولكن

الأمانة لا تكون أمانةً حتى يتعرض لها حاملها فلم أتعرض لما هو فوق طاقتي ألم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمين جبريل في المعراج عن رجل رآه من أمته وقد جمع حزمة عظيمة من حطب لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ؛ فقال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها أمانات أخرى، ولكني إن أنا فعلت وأنزلت عن ظهري تلك الأحمال فما تكون الأمانة وما حملها وكيف يكون التفريط فيها وتضييعها، ألم يقل صاحب الحِكَم : " **إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، و إرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العليـة "، " لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أراد لاستعملك بغير إخراج** "............ وظللت هكذا ودائمًا حوار وعراك يتقدان بداخلي حتى بلغت المنزل والشمس تلقي عليَّ دنانير من نورها فأويت إلى غرفة مكتبي وأهويت إلى الأريكة متعبًا أحاول أن أسترسل في ذلك الحوار المتصل إلا أنني استسلمت لإجهادي وإعيائي وقلت: عند الصباح يحمد القوم السرى، ورددت الحكمة العطائية الأخرى : **"أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت لنفسك"**

ورحت في سبات دفين حتى انتبهت على دويٍ من القرآن فتذكرت صلاة الجمعة وقد قرب وقتها فدخلت عليّ زوجي قائلة : (لقد طال بك المنام، قم فالفطور معد حتى تدرك الجمعة ويكفيك ما فوَّتَ من الفجر)، قالت ذلك في عجالتها المعتادة وهي على أهبة إعدادها لطعام أو القيام بأمر من أمور بيتها

ثم غادرت الحجرة تاركة إياي في حيرة من أمري، أهز رأسي محاولًا تنبيهها، كيف فوَّتُّ الفجر، لقد صليته حتى إنني صليته في المسجد، ثم تذكرت ذكرها للفطور فأحسست بثقل الطعام في بطني وأرخيت جفوني وأفردت ذراعي حتى أستلهم منهما عونًا على القيام فوقعت إحداهما على كتاب فأمسكت به فإذا هو ديوان المتنبي، عندها بدأت تنفصم عُرَى حيرتي عروة عروة وتنحل عُقَد غفلتي عقدة عقدة، فأخذت أستدعي ما حدث ليلة أمس فقد مضيت ليلًا لا ألوي على شيء بعدما فارقت صحبتي على المقهى إذ ما طعمناه من عشاء وما احتسيناه من ساخن الشراب لا يزال يعتمل في بطني اعتمالًا ويئن بها أنينًا. وأُبْتُ قاصدًا المنزل وأنا أؤمل في راحة مرجوة وأحلم بماء دافئ وفراش وثير، وأدرت مذياع السيارة فكانت إذاعة القرآن الكريم ومذيع الربط يفصل بين برامجها بطائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فكان حظي من مسمعي أن صادف قوله :

- ( روى الترمذي في سننه عن المقدام بن معد يكرب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **" ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"**، فقلت :
- ( صدق والله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأغلقت المذياع وقلت هذا يكفي لو عقلته وتدبرته حتى أخلد لفراشي فهو مفتاح من مفاتح الطب وإطار عام لعلم التغذية وتذكرت أن إحدى كليات الطب

الأوروبية فد نقشت على مدخلها (قال محمد بن عبد الله : "إن المعدة بيت الداء").

حتى إذا ما دخلت البيت وأوصدت بابه دوني وجدته مغموسًا في ظلمة بعيدة تحسست الجدار من أثرها وإذا بعود ثقاب يمد شمعة على نضد الطعام بقبس من ناره ونوره ثم يمتد إلى أخواتها في الشمعدان النحاسي الخماسي الأعين، وراحت الظلمة تنسلّ هاربةً في خُفية ساحبةً ذيلها في خِفية بعدما استلّ عليها الشمعدان سيوفًا من نور، ولاح لي خلال هذا الجو مخايل زهور وصنوف طعوم وحلوى وعصائر وكؤوس فما كان مني إلا أن وضعت يمناي على معدتي أتحسسها إن كان ثَمَّت فرجةٌ لمأكول، ورحت أتمثّل خيالا موقف زوجي وهي تلاومني متباكية لو أنني أخبرتها أني قد طعمت مع صحبي قبيل عودتي وأن ليس بأحشائي موضع لمطعوم وإذ بصوتها يقطع عليَّ هذا الخضم من الخيالات بقولها : كل عام ونحن طيبان فاليوم قد مر على زواجنا عامٌ جديد فحمدت الله أني لم أفه بحرف يتبيَن سبب تلك الوليمة - فقد كنت ناسيًا- إذا لانقلب العيد نابغيًا وانقلب خطأ عشائي بالخارج خطيئةً وغِيًا، وتبسمتُ تبسم الأبله وضغطتُ على معدتي بقوة مفكرًا في التعلل ولكن هيهات ولات حين مناص فذكرى يوم الزواج صارت عند أجيالنا الجديدة كذكرى يوم مولد أحد الأولياء لا يُفوَّت ولا يُفتات وإلا حُرمنا بركته. وخطرت ببالي خطرة أحتال بها للهرب بأن أدعوها للخروج احتفاءً واحتفالًا علِّي أكسب وقتًا

للهضم ولكنها أَبَتْ فطأطأت رأسي مرغمًا فلا بدَّ مما ليس منه بدٌّ، واستسلمت لقدري وأنا أُقلِّبُ عينيَّ في جهة السماء.

ورحت أدس في فمي من تلك الأشياء جامدها وسائلها بيدي لا بيدها تارة وبيدها تارة أخرى ولم أستطع أن أميز ما كانت تُعْنَى به دومًا من عنايتها بمزج التوابل والبهار حتى إنني كنت أدعوها بصاحبة التوابل الشريفة وألقّبها بكيس البهار كما كان يلقِّب الأوروبيون الشيء النفيس في القرون الوسطى حيث كانوا يزنونه بميزان الذهب، إلى أن انتهينا وأنا منفرج الأسارير أغالب بذلك إعوازي للقدرة على الكلام فقد انتابني شعور بأنني لو فهتُ لتسللت الأحرف مذيلةً بأخلاط من مكنون معدتي.

وسايرت أمري حتى خلدت لفراشي أنتظر رسول النوم فلم يفِ بميعادٍ ولم يصدق بوصلٍ ولا صلة، وأنا كالكثيب المهيل لا أستطيع حراكًا لا يمنةً ولا يسرة وكأني أحمل فوق بطني جبل المقطم القابع خلفنا بصخره وحجره ورمله وأهله.

قلت أغالب وقتي وليلي بالقراءة فقمت إلى المكتبة أنكثُ في أرففها فوقعت يدي على عدد الهلال التذكاري لشوقي وفتحته كيفما اتفق فما وقعت عيني إلا على قوله من مقدمة الشوقيات في طبعتها الأولى : "وحسبك من أن الطب جميعه لو جُمع لما خرج عن البيتين المنسوبين إليه –يقصد الشافعي رضي الله عنه- وهما :

ثلاثٌ هن مهلكةُ الأنامِ وداعيةُ الصحيحِ إلى السقامِ

دوامُ مدامةٍ ودوامُ وطءٍ وإدخالُ الطعامِ على الطعامِ

فطويته وقد أصاب كبد ما أنا فيه، وقلت :

- ( ما تلك الموافقات العجيبة لموقفي ؛ حديث نبوي شريف وبيتا حكمة وطب لصاحب المذهب ؟! والله لا يجري هذا على غير هدى إنه لإشارة وأمارة ليرى من له بصر حديد أو يتذكر من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أم تراني أنتظر ملكًا أو وحيًا ينزل عليّ من السماء ألتمس منه الحكمة وقد انقطع العهد بنزوله) ، ثم خطر ببالي أن أتصفح ديوان المتنبي لعلِّي أقف على معنى تدور له رأسي وتذهل به نفسي ويغيب به وعيي فأغيب عمّا حولي ولطالما حدث لي مثل ذلك مع أبي الطيب كثيرًا. فقلت أفتحه فأقرأ ما تلقَّفه عيناي اتفاقًا فليس لي جهدٌ في حالي تلك في إعمال عقلٍ لاختيار وليس بجفوني قوة لاطِّلاع، ولمَّا فتحته كانت المقصورة الكافورية "ألا كل ماشية الخيزلى"، ومضيت أنشد حتى بلغت قوله:

وماذا بمصر من المضحكات ولكنَّه ضحكٌ كالبُكـا

بها نَبَطيٌّ من آهل السَّـوا........د يدرِّسُ أنسابَ أهلِ الفَلا

فقلت :

- (ذلك ما كنَا نبغ ؛ فقد وافق شَنٌ طبقة).

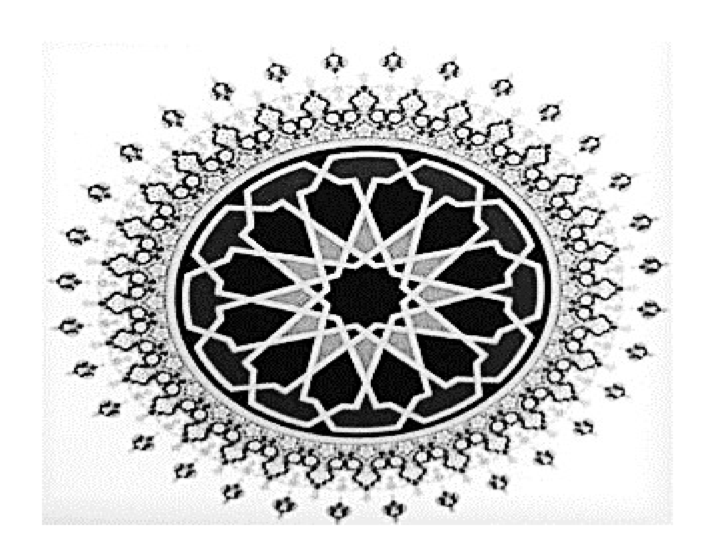
طويت الديوان بين يديّ وأسندت كاهلي حذو متني الأريكة ناظرًا بعيني صوب سقف الغرفة مسترجعًا شريط أحداث يومي وليلتي فإذا به يتحرك قلقًا مضطربًا على غير هدى ونظام، وراحت تتحرك خلاله بين ظهور ونكوص أحداث يومي بشخوصها وأماكنها مضطربةً غير منتظمة يكتنفها أشباحٌ وأوراقٌ، معالم وطرقات، حروف وألفاظ، فها هو مشهد نضد الطعام بصِحافه المترعة، ومنظري وصحبي ونحن نتلقَّف لقيمات الفول في عشائنا الساذج الشهي، وصورة لصديقي مختار تعلوها كلمات :

- (توقيع ديواني الأول يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر فلا يفوتنَّك)،

ومنظرٌ لي وأنا أتحدث على مائدة اجتماعات العمل في اجتماعٍ تحضيريّ ثم في آخر تمهيديّ ثم ثالثٍ نهائي، وصورة وأنا أعبر الطريق ذاهلًا مشدوهًا متحسسًا جبهتي ماسحًا عرقي بإحدى يديّ والأخرى تكابد ثقل حقيبتي، وضحكةٌ مني خرساء خلال نقاش دار بيني وبين أحد رؤسائي مزاجها سخرية وأسى، وورقٌ على مكتبٍ، وكلمات واصطلاحات : التبييض والتسويد ... الهوامش والتحبير ... الطبع والتطبيع... الإطلاق والتقييد ... الحداثة وما بعدها... القديم والجديد ... الطريف والتليد ... القدماء والمولدون ... الحرف والصوت ... اللفظ والمعنى ... جميل وبثينة ... تفسير أبي السعود ... الجزء الأول المفقود من نسختي من

كشاف الزمخشري في طبعة الحلبي... قبو الحلبي الكتبي برطوبته وأتربته وخفوت إضاءته وأنا عازم –رغم ذلك- على أن أجد الجزء المفقود من الكشاف، ثم بهتتْ الصورُ والمناظرُ وغامتْ ثم غابتْ واستُبدلتْ ضبابًا فسوادًا، .........حينها أدركت أن ذلك كان الخيط الفاصل بين الحقيقة والخيال بين الواعية واللاواعية بين النوم والانتباه، وأن ما كان... كان حلمًا، وقمت عازمًا على غير فطور طالبًا الجمعة مستريحًا بالصلاة، متذكرًا لحكمة عطائية أخرى : **" اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لك وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منك دليلٌ على انطماسِ البصيرةِ منك ".**





# تتمة

يقول راوية القصة وبطلها: بعد أن فرغت من رواية قصتي هذه أنعمت النظر في متنها فوجدت جميع شخوصها ورسومها تسبح في فلك الوجود بجواهرها وأعراضها، وتدور في دائرة المعرفة بمعارفها وأعلامها، إلا بطلها وراويتها فهو نكرة معدومة ؛ فالوجود من غير وجوب قد يكون ممكنًا بينما العدم مستحيل، غير أني لم أعرف بعد أكان ذلك العدم عدمًا أم عدمًا محضًا فالعدم المحض لا يكون إلا عدمًا محضًا لذا لا يمكن تخيله كما يعبر أهل الكلام. وإذا ما كانت الأعلام أعرف المعارف فإنني لم أجزم بعد أكان البطل نكرة مقصودة أم غير مقصودة كما يقول النحاة.

راوية (التوابل الشريفة) وبطلها

# تبيان لمن أراد بيانًا :

قال لي صاحبي وهو يحاورني :

- ( أراك أبهمت الأمر فاستبهم علينا وأغلقته فاستغلق وشق فهمه، فهلا رفعت لنا عن كلامك هذه الكمائم) ، فأجبته:

**أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم**

قال :

- ( ولِمَ لا، وقد فعلها أبو العلاء من قبل فشرح جلَّ عمله) ، قلت :
- ( إنما فعلها درءًا لشبهة، أو دفعًا لريبة، أو رفعًا لمظنة، وليس كلامي من ذلك في شيء) ، قال :

( فافعلها درءًا لشبهة اللبس، ودفعًا لريبة الاستعلاء، ورفعًا لمظنة الإغراب والحوشية). قلت :

- ( فإن كان ولا بد فليس في المتن فهكذا رُوِيَتْ، وإلا فإن التدخل يجرحها ويضعفها، لذا سأثبت في هامشها ثبتًا لتبيان ما أُبهم لمن أراد بيانًا. قال :
- ( حسنًا إن فعلت).

1. **المهن :**

**الشهبندر** : فارسي معرب، ليس له جمع فيستخدم للمفرد والجمع، وهو أمير التجار وكبيرهم.

**المهمندارية** : المَهمندار- فارسي معرب وأصله مَهمن ومعناه الضيف، والثاني دار ومعناه ممسك الضيف، ودوره يقوم على أمور قُصّاد الملوك ورسلهم ويكون المهمندار تابعًا لكاتم السر أي صاحب ديوان الإنشاء.

**الدست الشريف** : ديوان الإنشاء ودوره التعرف على أخبار الممالك المختلفة وعرضها على السلطان، وهو القائم بكتابة التعيينات والصلاحيات لكبار موظفي الدولة وكذلك نشاط جهاز البريد، فضلًا عن تنظيم العلاقات الدبلوماسية واستقبال السفراء. ويسمى صاحبه بكاتب السر أو صاحب الدواوين الشريفة أو كاتم السر أو صاحب الدست الشريف.

**الدوادار** : حامل الدواة للسلطان وهو بمثابة المستشار المؤتمن.

**الخاصكية** : أخصاء الدولة للأمراء والسلطان.

## 2. الشخوص :

**تغري بردي الترجمان** : رئيس ديوان الإنشاء في زمن قنصوه الغوري.

**تغري بردي الدوادار الابن** : هو ابن الأمير سيف الدين تغري بردى بن عبد الله البكلمشي الدوادار الكبير حاجب الحجاب المعروف بالمؤذي، صاحب المدرسة بشارع الصليبة. توفي سنة 846 هـ.

**أبو المحاسن** : أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي المؤرخ. (813 هـ / 1410م - 874 هـ / 1470م) ؛ مؤرخ مصري تتلمذ على كل من البلقيني، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عربشاه. ولازم تقي الدين المقريزي من مؤلفاته : " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي "، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة".

**السلطان** : هو السلطان الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري، (850 هـ /1446 م : 922 هـ / 1516 م)، امتلكه الأشرف قايتباى وأعتقه وعينه في عدة وظائف في خدمته. عين وزيرًا وفى دولة الأشرف جنبلاط. ثم نودى به سلطانًا سنة 906 هـ- 1501 م حتى قتل في معركة مرج دابق سنة 922هـ - 1516 م

**سانوتو، تالدي، وسيجونديو** : نبلاء و سفراء من جمهورية البندقية في زمن السلطان الغوري

الراهب موريس : راهب فرنسيسكاني إسباني، كان حارسًا لدير جبل صهيون ببيت المقدس زمن قنصوه الغوري.

### 3. الرسوم :

**المدن** : البندقية : فينيسيا، كَنَنور،كُوشِين : إمارات هندية كان يجلب منها التوابل والبهارات الشرقية، لشبونة.

**الدروب والخطوط** : بئر الوطاويط : مكانها الآن بالقطعة الواقعة شرق مسجد ابن طولون، صليبة طولون أو الصليبة، قناطر السباع : ومكانه الآن ميدان السيدة زينب، بركة الفيل، درب أزبك، سويقة منعم، كوم الجارح : ومكانه الآن حديقة الفسطاط، حدرة البقر، باب زويلة، ميدان الرميلة : ميدان القلعة.

**المساجد والمدارس والخانقاوات** : مسجد ومدرسة تغري بردي الدوادر، الشيخونية أو مسجد وخانفاه شيخون، جامع قوصون، مسجد القلعة.

**الدور والقصور** : دار طاز، القصر الأبلق، باب المدرج : باب القلعة.

**الأسبلة** : سبيل قايتباي، سبيل أزبك اليوسفي، سبيل صرغتمش.

**الحمامات** : حمام شيخون، حمام الفارقاني، حمام قتَّال السبع.

# نَسَبُ السَّعْد

أَيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيا سُهَيْلاً

عَمْرَكَ اللَّهَ ، كَيْفَ يلْتَقِيانِ

هِيَ شامِيَّةٌ إِذا ما اِستَقَلَّت

وَسُهيلٌ إِذا اِستَقَلَّ يَمانِ

عُمَرُ بنُ أَبي رَبِيْعَة

ظل طيلة عمره يخطب ودَّها، ويتودد إلى أهلها كي ينال شرف نسبهم والانتساب إليهم، ولكن سعيه دائمًا ما كان يبوء بالفشل فيكون دافعًا له لأن يجتهد أكثر حتى يعلو على حاجز الكفاءة الذي يحجبها عنه.

كانت جميلة ... غاية في الجمال، تستند إلى حسبٍ عالٍ، وتتكيء على سندٍ عالٍ من مال، إلى جانب عُلُوِّ كَعْبٍ في خلق ودين، وثَمَّ شيء آخر قد لا يَقْدُرُه الناس في زمننا حق قَدْرِه وهو العلم فهي حاصلة فيه على درجات عليا. لقد كانت أسباب رِفعتها سببًا في ارتفاعها عن طالبيها وهو أحدهم.

ظل صاحبنا صابرًا مثابرًا مرابطًا مراقبًا يتحيّن الفرصة تلو الأخرى حتى يفوز بها وهي ترفضه كما ترفض غيره، قلَّ خاطبوها حينما أدركوا أنهم غير أكفاء لها فخاف أهلوها أن يفوتها قطار الزواج فأخذوا يُكْرِهونها على قبول الزواج ممن يتمنّاها ويبذل في الفوز بها النفس والنفيس. انقسمت العائلة في أمرها فيما بينها قسمين : قسم يراه غير كفء لها ولا لعائلتها وأيسر لها أن تعيش من الأيامى من أن تتزوج مثله حتى ولو وزنها ذهبًا، وقسم حكّم العقل – والعقل يشط أحيانًا – مخافة أن تُحْرَم نعمة من نعم الدنيا وهي السَكَن إلى زوج.

غلب أهلُ العقلِ أهلَ القلبِ من العائلة ودُفِعَت الفتاةُ نحو الموافقة دفعًا فاشترطت عليهم أن يكون الأجلُ من الخطبة عامًا قبل الدخول حتى يختبر بعضهما بعضًا وتمتزج طباعهما شيئًا فشيئًا، فوافق صاحبنا على مضض، بيد أنه وإن كان الأمل في تعجُّل الدخول بها كبيرًا، فقد كانت غمرة الفرحة في خطبتها والارتباط بها أكبر.

قضت الفتاة مع صاحبنا عامًا كاملًا كان أرباعا أربعة كفصول السنة ومواسمها:

**ربيع** فربع كالربيع قضاه معها تمثيلًا وتشخيصًا وتطبُّعًا لا طبعًا ؛ فقد كان يحاول أن يبدو في عينيها بما يرضيها ويليق بها، ولكن الأمر كان منه تكَلُّفًا فَغَفَرت له الأمر لأنها حملته على محاولته إرضاءها والتقرُّب منها.

**صيف** حل الربع الثاني فكان كالصيف ؛ فقد أخذ الملل من التكلُّف والتمثيل يسري في أوصال صاحبنا، والطبع يغلب التَطَبُّع،

كلُّ امريءٍ صائرٌ يومًا لشيمته

وإن تخلَّق أخلاقًا إلى حينِ

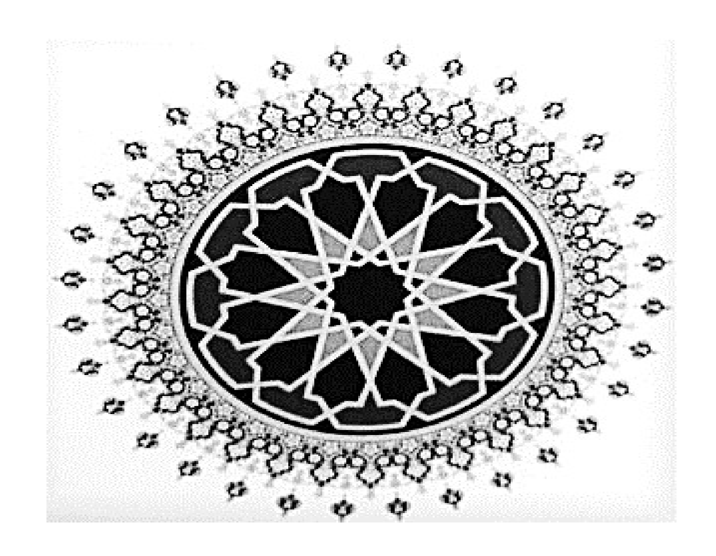
لم يستطع صاحبنا أن يصمد طويلًا فخانته بوادره وتفلتت منه أطراف لسانه فلم يستطع الإمساك بها، ولم يستطع ضيق خلقه أن يتسع طويلًا فكان يعتذر مرة ويمسك أخرى ويصمت ثالثة أخرى وتارة كان يمضي لا يُعَقِّب وراءه.

**خريف** ومع الربع الثالث - وهو كالخريف - تساقطت ما بينهما من أواصر وروابط واهنةً هيّنة، علَّقتها في أغصانها وسوقها كذبُ البسمة وصُفْرَة الضحكة، فقد بات ما بينهما - بعد أن بان – مختلفًا جدًّا، بدا البعد فيما بينهما من اختلاف الطباع والأخلاق والنشأة وفارق مستوى العلم والثقافة والطماح، بدا ذلك كله دافعًا لأن تطلب منه الفراق بالمعروف والوداع بالحسنى، طلبت ذلك وليس بينهما من شيء إلا تلك الحلقة الصفراء في بنصر يمناها، فقد كانت تلك الفترة كافية لأن يثبتا لبعضهما أنهما غير موفقين لبعضهما بعضًا.

**شتاء** وبحلول الربع الرابع – ربع الشتاء – بدأ الفتى في الإبراق والإرعاد والعصف بكل ما يُتعارف عليه من العرف والمعروف وأصول العشرة والجيرة فأخذت أصواته وأصوات عائلته تعلو في الحي تحت بيت خطيبته السابقة وتلاسن القوم والتحم صغارهم وتنابذوا فيما بينهم وعيّر بعضهم بعضًا وسلط الفتى سفهاء عائلته حتى يحصبوا المتشددين في أمره من عائلتها بالحصى ويسبّونهم في الطريق، وصار الفتى وأهلة يهددون على الملأ من يحاول أن يفكر في خطبة الفتاة أو طلب يدها وكأنها كتبت لابنهم قضاءً وقدرًا. ظلت الفتاة هكذا تكتم في نفسها، ولكنها لم تستطع أن تظل على هذا حتى كانت ذات يوم تسير عائدة من عملها تعرض لها بالقول في رفقة من أصحابه فوقفت على غير عادتها ثم صرخت في وجهه بانفعال حاد قائلة له:

- (لا أريدك ... ألا تفهم ... لا أريدك ... كيف تقبل كرجل على نفسك هذا ... لا أريدك). غض أصحابه طرفهم خجلًا منه وحرجًا له، فيما هو وقد أحنى رأسه ولم يستطع أن يرفع عينيه كي يراها وهي تبعد في سيرها وتمعن في خطوها وهو يردد بينه وبين نفسه :
- (لن تكوني إلا لي، لن تكوني لغيري حتى لو محوتهم جميعًا....).

********************



# أُمُّ سِرَاج

صورة في فلسفة الموت عند المصريين

( السلام عليك يا أيها الإله الأعظم، إله الحق..

**إلهي**، قد جئتك خاضعًا كي أشهد جلالك..

**إلهي**، قد جئتك متحليًّا بالحق، متخليًّا عن الباطل

فلم أظلم أحدًا، ولم أسلك صراط الضالين،

لم أحنث في يمين،

ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني إلى حليلة أحد من ذوي رحمي،

ولم تمتد يداي إلى مال غيري.

ما قلت كذبًا، وما كنت لك عاصيًا.

إني طاهر، إني طاهر، إني طاهر،

وما دمت بريئًا من الإثم، فاجعلني يا إلهي من الفائزين....)

كتاب

الخروج إلى النهار

- وإن تعجبْ فعجبٌ لأمرنا نحن المصريين، قلت :
- لأي الأمور تعجبين ؛ وإنه لكثير من أمورنا يثير العجب. قالت :
- إن ضحكنا وأغرقنا في الضحك رددنا الضحك وتعوذنا بالله واستغفرناه، قلت :
- ذلك مخافة أن نفرح فنؤخذ بما أوتيناه بغتة. فقالت :
- وهل يُدفع هذا بذاك ؟ أفلا ترى وجوهًا لا يعلوها إلا الوجوم كوجوه الفيوم. قلت :
- إذن فلا جرم أن نقدس الموت ونأبه له أكثر مما نأبه للفرح ونخف له، قالت:
- وهل يدفع تقديس الموت لأن يعذر بعضٌ بعضًا إذا ما فرّط في حق الفرح وواجبه ويعذل بعضٌ بعضًا إذا ما لم يفرط في حق الترح وواجبه، قلت :
- وكيف ذا؟ قالت :
- قد يغضُّ لك أخوك انشغالك عن تهنئته عند أفراحه، ولا يغفر لك انشغالك عن مواساته عند أتراحه، قلت :

- تلك طبيعة مركبة فينا، أما ترين أن أقدم بناية عندنا و أكبرها كانت مقبرة وسكنى لموتى؛ نفاخر بها الدنيا أكثر مما نفاخر ببنايات الحياة وما يدخل السرور والسعة. ولا يبقى من أبنيتنا على مر الدهور غير المعابد والمقابر بل وفي حقبتنا الإسلامية جمعنا بينهما فصرت ترين المسجد وبه مقام لولي وصالح.وترين في حياتنا المعاصرة تأنقًا في صور التعازي أكثر مما نتأنق في صور التهاني فنتبارى في السبق للظفر بمساحة رحبة وموقع مميز في إحدى الجرائد السيارة لنعي ميت أو لتعزية ولي لفقيد قد نفعل ذلك نفاقًا أو جزاءً وفاقًا وأيًّا ما كان فهو اعتناء بالموت واحتفاء به.

هذا ما دار من حديث بيني وبين نفسي وأنا أقف على قبر والدي أستغفر له وأدعو له سائلًا الرحمة ببضع آيات من الذكر الحكيم، وتذكرت وفاته وما قبيل وفاته من أيام مرضه وصور علته وكيف كان يعمنا الحزن حينها وكأنه وفاء للموت أكثر مما نؤمل فيه من وفاء للحياة. ولا أنسى ما رأيته ليلتها في منامي من أن بيتنا يغرق وتغمر أركانه المياه حتى كادت تبلغ الأَسِرَّة، حينئذ سمعت صوت صراخ لغرق البيت ما لبث أن اختلط بأصوات نواح وعويل خارج عالم النوم انتبهت على إثرها في هزيع الليل الأخير لأجد أمي وأختيّ ومن ورائهن جدتي يصرخن ويبكين وأخي يضع يده على كتفي ثم يحتضنني وهو يجهش بالبكاء فقد مات والدي، وقد اتفق غرق البيت منامًا بغرقه لفقد صاحبه والقيِّم عليه حقيقة وأنا الطفل الصغير الذي لم يتجاوز السابعة بعد ولا يملك من الأمر إلا البكاء ولا يدرك من معنى موت الأب إلا فراقه.

ودخلنا عالم الحزن ...، والحزن المصري في ذلك الوقت كانت له طقوس ومراسم قوامها الصبر عليه والتمهل فيه ولا أظن للناس صبرًا عليه الآن فقد مضى زمنه، إذن كان الحزن المصري على العهد به -أو كان الحزن مصريًّا- فكنت إذا ذهبت إلى تعزية وجدتهم لا يقدمون للمعزين شيئًا غير القهوة فيتقاهونها بينهم بغير سكر ويسمونها "سادة" وكأن السكر أمارة من أمارات الفرح وكأن ترك السكر ترك للفرح وتمسك بالترح، أما الآن فترى الناس يقدمون القهوة المحلاة والشاي والماء المعدني المبرد أحيانًا.

كان استقبال المعزين خلال الثلاثة أيام الأولى تليها زيارات المقابر أو القرافة كما كانت تسمى وكانت زيارتها كل يوم خميس حتى نبلغ الأربعين ثم تصير كل عام في الذكرى السنوية ؛ تبدأ الزيارة من النهار وحتى الغروب نقضي بها يومنا قضاء متصلًا كاملًا يشمل الفطور والغداء. ظللنا على ذلك أمدًا حتى بعد أن شد بنا رهق الفتوة وما يتبعه من حماس ديني لم نستطع معه أن نثني الأهل عن تلك العادات، و قد لا يكون ذلك غريبًا فالمصلحون مستضعفون في أهليهم ولا كرامة لنبي في قومه كما أن الزامر لا يطرب حيَّه.

في الحق كانت والدتي مخلصة للموت وافية له لطالما تتقرب له بالحزن تارة وبالبكاء أخرى، وكانت لها في الحزن ألوان وأفانين تظل تبكي والدها وتحزن لفقده وذكراه حتى إذا رحل زوجها نسخ موته وحزنها عليه موت أبيها وحزنها عليه فإذا مات أخوها نسخ موته موت أبيها وزوجها وحزنها عليهما ويصحب الحزن ذكر المآثر والذكريات. وكانت تقسو علينا في حزنها وتحملنا عليه قسرًا

فلم نكن نستطيع أن نضحك أو نبتسم في حضرتها، في الوقت الذي كنا أحوج ما نكون لعطفها وحنوها وتسريتها عنا. كانت وكأنها تعاقبنا على الموت وكأننا سبب فيه أو السبب فيه، لا أنسى ما فعلته بأختي حينما سمعتها تضحك يومًا بصوت فوبختها وأخذت تعنفها وتدعو عليها. كانت مراسم الحزن والحداد تتسع فيضيق دونها الكلام، وتتسع فتنسج سياجًا حول الضحك والابتسام، وتمتد فتحيط بالحظر الاستماع للمذياع إلا من التلاوات القرآنية فقط بإذاعة القرآن الكريم وتمتد بيد من حديد لتحظر بل وتحرم ليس مشاهدة التلفاز فحسب بل والحديث عنه فالحديث يعني التفكير وهذا يعني نسيان الحزن وغلبة ملاهي الحياة . كانت مراسم الحزن والحداد تخطو وتعدو لتتجاوز الأيام والشهور وتتعدى إلى الحول فإذا ما حال فُرجت وكنت أظنها لا تفرج، فتعود الحياة من جديد : الاستماع لأبلة فضيلة وحكاياتها الجميلة ثم المسلسلة الإذاعية ومشاهدة مسلسلة الساعة السابعة والأفلام ...نستمع ونشاهد ونستمتع بعد أن كنا نسترق السمع عند المحال ونختلس النظر عند الجيران وعند المرور بالمقاهي ونعود لنتهامس بما سمعناه أو شاهدناه.

*************

كان قراء المقابر - أي قارئو القرآن بالمقابر - ما إن يبصروا بابًا مفتوحًا لحوش حتى يدخلوا زرافات ووحدانًا ثم يشرعوا في تلاوة القرآن دونما استئذان، وكانوا على تعددهم لا يعدون تلاوة سور بعينها من مثل يس والرحمن والإنسان إما لأنهم لا يستظهرون غيرها، أو لأنهم تخيروا حفظ القصار

والأواسط مما يلائم المقام، وقد كنا نشهدهم العام تلو العام فلا يعدون تلك السور بل ولا يتعدون أخطاءهم المكررة في تلاوتها وليس ثمت أحد يردهم مصحّحًا ، إما كسلًا من بعض أو جهلًا من آخرين.

وازدردت ريقي فوجدت حلقي جافًا قد أخذت به مرارة الذكرى ووحشة المكان وشد بي الظمأ فاستدرت تلقاء أم سراج على الجانب الآخر أطلب الماء كما كنا نفعل صغارًا ولأمتُ فجوة الزمان بعد أن سقطتُ فيها لمحة من زمان وأسبلتُ جفنيّ في خيبة وأسى ؛ ووجدتُني ما بين جانبي المكان – وهما على ضآلة ما بينهما من البعد؛ فهو لا يبلغ من الأمتار خمسة – طفلًا يمضي مهرولًا في جذل الصبا طارقًا بابها سائلًا إياها في إعارتنا ليمونة أو ليمونتين فقد أراد أهلي وأقاربي أن يتناولوا فطورهم على الفول والطعمية وخليط أخضر من الفجل والجرجير والكراث، ولا يصلح هذا إلا بالليمون . وكنا -نحن الصغار- لا نشاركهم في هذا المعترك بل كنا ننتظر حتى تدور أكواب الشاي وما أحضرناه معنا من فطائر الصدقة فنتناولها مع الشاي المرقق بالحليب، وكنا نتفكَّه بما جلبناه معنا من فاكهة الصدقة كالبرتقال حينًا والتمر أحيانًا. وما أكثر ما كان زوَّار المقابر يتبادلون مجلوب الصدقة وخاصة الفطائر ؛ على سبيل المحبة والتواد آنًا، وعلى سبيل المباهاة والتفاخر بين النساء في إتقان الصنعة آنًا آخر، فما أكثر ما كنت أشاهدهنَّ يتذوقن الفطائر متعددة المصدر وهن يحتسين الشاي أو بدونه وتبدأ لجنة التقويم : فهذه بالسمن الهولندي وتلك

بالسمن البلدي وتلك بالزبد الصرف وهذه معجونة بالحليب، وكثيرًا ما تراهن يقطمن القطمة ثم ينظرن إلى الفطيرة كأنهن يقوّمنها بالعين بعد اللسان . ويدور الحديث ويتفرع ويتشقق ويتشعب وقد ينعرج على المتوفى وذكره وذكراه وذكر مناقبه فيُستأنف البكاء ويتصل النحيب حتى يردهنَّ عنهما أمر آخر.

وتقدمت تلقاء بابها وأنا أغالب نفسي بألا يخالجني خوفٌ من منظرها، ولم الخوف ونحن ضحىً لذا لا بأس من سؤالها ولا خوف من رؤيتها طالما أننا في وضح النهار ولم يجنِ الغروب بعد فتودعنا الشمس بضوئها فنستعيض عنها في تلك الوحشة بوحشة أخرى في ضوء أم سراج فقد كان ضوء الفتيل من قنديل أم سراج يبدد وحشة الكبار ويجدد وحشتنا نحن الصغار. طرقت الباب وقلبي يطرق جدران صدري طرقًا متصلًا وركبتاي تصطكان ببعضهما اصطكاكًا عنيفًا وحرقة كوخز إبرة يخز في مجرى بولي لن يطفئ حرقته إلا سلس من ماء، كل ذلك وأنا أغالب نفسي من خلف ظاهري متظاهرًا بالشجاعة والبأس والجسارة فأطفال العائلة ينظرونني من خلف يختبرونني . ففتحت وإذا بامرأة شمطاء شعثاء الشعر مرتعشة الصوت حينما سألتني:

- ماذا تريد يا بني؟ فلم أحر جوابًا وأنا مشغول عن سؤالها بتفرس ملامحها وعينيها وأسنانها مترقبًا الشرر المنبعث من عينيها متفحصًا أطراف حواف أسنان التماسيح في فمها، دائرًا بعيني خلفها أفتش عن أدوات القتل والسفك من القيود والمناشير والسكاكين وغيرها مما يتسامر به الصبية ليلًا لإرهاب بعضهم بعضًا. كررت سؤالها ثانية فأشرت تجاه مقامنا فافترت

باسمة الوجه فبدت كعجوز حنون ذاب من أثر بسمتها خوفي وهلعي فسألتها ما طُلب مني وأنا مازلت أتلعثم في الكلام فما زالت أسناني تصطك وشفتاي ترتعدان فلم أنطق إلا بكلمة :

- (ليمونة) ، والبقية إشارات استعنت فيها بيمناي للإشارة إلى أهلي ومقامهم في مقابلها. أعطتني الليمونتين فالتقطتهما واستدرت راجعًا لا أعقب بنظر، أتريث في خطوتي أمام الأطفال وإن كنت أود أن أسلم ساقي للهواء فهواجسي نحو المرأة لم تغادرني بعد وقصص مكر الثعالب واستدراج ضحاياها وخرافات الغيلان وتنكر العفاريت في زي البشر تستبد بمخيلتي.

كانت أم سراج أعجوبة وحديثًا عجبًا خصوصًا لدى الأطفال أبناء الزّوّار كان الأطفال الأسنّ منا يعبثون بأخيلتنا ويقتّلونها تخويفًا وترويعًا بخرافات عن أم سراج وكيف تتخطّف الولدان والبنيات وتدفنهم في قبرها أحياء يذوقون هناك ألوان الرعب من العقارب والحيات والتنانين تحت ذلك الظلام، كانت هذه صورة أم سراج عندنا نحن الصغار بينما لم تكن كذلك لدى ذويهم ؛ فلم تكن قصتها مستغربة عند الكبار في تلك الأيام، ولم يكن هذا اللون من الحزن مستنكرًا في ذلك الزمان بل كان مألوفًا في بعض شرائح المجتمع وزواياه، ومن لم يره رأي العين فقد سمع به ممن يثق فيه.

كانت سبيلًا وكرمةً للسابلة والزوَّار نهارًا، ومنارًا للحيارى والهائمين ليلًا، إلا أننا نحن الصغار لم يكن لنا من منارتها حظ النور والهداية بل كان لنا منها الخوف والوحشة والغموض.

كنا نسأل عنها وعن حكايتها ولم تقطن ذلك المكان الموحش وتبيت فيه وحدها ليلًا لا يجاورها إلا الموت والموتى فكانوا يروون لنا أنها كان لديها ابنان استشهدا في حرب رمضان وحينما جيء بهما ليُوارا التراب أَبَتِ المرأة أن تفارق ولديها وعاهدت ألا تتركهما حتى تتوارى بجانبهما.

سألت والدتي يومًا عنها – وكثيرًا ما سألتها عنها – وكانت تقتِّر في الكلام عنها تقتيرًا، وكل سؤال في كل مرة يُرد عليه بجزء جديد مقتضب من حكايتها مسبوق بكلمات كأنما تشوقني للسماع أو تشفق عليّ من أسى قصتها، وهي لا تعلم أنها كلما أفصحت عن قصتها أكثر فسيمحو ذلك تخوفي منها ومن خيالاتها في الظلمة وقبيل المنام. ومرة وحيدة وجدت أمي تضحك عقب استئناف فصل جديد من قصة المرأة ؛ فقد كان كل فصل يبدأ بسؤال مني يُستأنف بعده وصل ما انقطع إتمامًا لما سبق ولمامًا لشوارد مبعثرة وشعث مفرق، أردت أن أُدِلَّ على والدتي في الحديث وأشعرها بأني عرفت شيئًا لم تروه لي وهو أمر ولديها واستشهادهما في الحرب فسألتها:

- وأيهما يدعى سراجًا كبيرها أم صغيرها ؟ وقد كان ذلك هو السؤال الذي أغرق والدتي في الضحك فقد قالت والدتي :

- ( ليس أحد من ولديها يدعى سراجًا إنما الأكبر محمد كان طبيبًا والأصغر أحمد تخرج مهندسًا، أصاب الأصغر الدور في الالتحاق بالجيش بعد أن صار الأكبر عائل أسرته بعد موت أبيهما إلا أن نخوته وهمته وحبه لوطنه أبت عليه أن يحارب أخوه الأصغر ويقبع هو في الدار كالفتيات فتطوع وقُبِل تطوعه) ، قلت :
- ( فمن سراج هذا إذن ؟ ) ، قالت :
- ( إنما ذلك ما أطلقه عليها الناس لأنها تشعل قنديلها وتضىء سراجها لينير الطريق ويهدي السبيل للسائرين ليلًا لذا لقبوها بأم سراج أي صاحبة السراج ).

وازداد بي الظمأ فنظرت نحو بابها مرة أخرى بيد أنه كان موصدًا وقد علته غبرةٌ كأنه مطليٌ بغلالة من غبار، لقد صار المكان قفرًا مجدبًا أكثر من ذي قبل إذ أوصد باب أم سراج كما يستوحشه المكان على وحشته، أما هي فقد نالت ما تمنته وما أوفت له ونذرت آخر حياتها من أجله بأن ترقد جوار ولديها.

آذنت الشمس بالمغيب فمضيت مخافة أن يحل الظلام وليس لقنديل أم سراج من يوقده.

*************

# 202

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا

وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

الأَعْشَىْ الكَبِيْر

- (حقًا .. لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع، إلا أنه لم يكن غيبًا، بل كان عينًا، أو أنه كان غيبًا عند غيري عينًا عندي، غيبًا لدى من هم حولي، عينًا بداخلي. ورغمًا عن ذلك، فمع اطلاعي على غيب أعلمه لأبقيت على واقعي مختارًا له مفضلًا إياه على غيب اطلعت عليه : فاليوم كما يقولون : "جاء لك الموت يا تارك الصلاة". لو أستطيع أن أفر بجلدي اليوم كما فررت يومها لفعلت، مع اختلافٍ بين اليومين- أما اليوم فهو فرار خوفٍ بخوف بينما الأول قد كان فرار لذة بلذة، ومتعة بمتعة. وهل يعدل التسكع والتصعلك لذةً خاصة ومتعة معينة لفاتكٍ مثلي ولو كان يوم امتحان؟! ذلك اليوم الذي يكرم فيه المرء أو يهان – كما يقولون عادةً-إن اللذة كلها، والمتعة كلها لا تكونان إلا فرارًا من أسر كاسر، وهربًا من هَيْغَبٍ مُغَيَّب).
- (عاصم .. هيا بنا ؛ فقد تأخرنا ..)

هذا ما ضربت به أختي الكبرى شرود الحالم عنهم، وفضّت به حديثي بيني وبين نفسي. تنهَّدتُ تنهيدة قلقٍ في خليط ما بين التصنع والحقيقة – تصنُّع

القلق على يقينٍ أعلمه، وحقيقة القلق من غيبٍ أنتظره، ثم قلت وأنا أَهِمُّ بالوقوف محاولًا التعبير عن هِمَّةٍ خفيّة تثبت وجودها وتبدي ظهورها :

- (هيَّا بنا .. أجل .. هَيَّا بنا ..).

نزلنا درج السلم في فتورٍ كَمَن يُقْدِمُ على مجهول فتعجبت شتَّان ما بين حركتي اليوم وما بين حركتي يومها؛

فقد كانت يومئذٍ خفيفة نشطة وثّابة ؛ فقد خرجت يومها مبكرًا على اتفاق بيني وبين صديقٍ لي على أن نبكر في الخروج قبيل موعد الامتحان بساعة ونصف، فالتقينا عند السابعة والنصف صباحًا، وصاحبي وَجِلٌ متردد، يكاد يخرج قلقه من خلف عظمة القص تخوفًا وقلقًا وهو يقول :

- (أخشى أن يرانا أحد أو أن نُفَوِّت موعد الامتحان)

طمأنته ويميني تربت على كتفه اليسرى :

- (لا تخف . فلدينا ساعة ونصف ساعة كاملتان .. نفعل فيهما ما نريد وما يزيد، ولك عليَّ أن تكون على باب لجنتك لأداء امتحانك عند التاسعة).

ثم بحركةٍ من يمناي تدفع كتفه اليمنى في همٍّ وحثّ تدعوه إلى التقدم والإقدام وعدم الإحجام.

- (تاكسي ...) هتفت أختي لتوقف إحداها
- (تاكسي...؟! وَلِمَ ..؟! أليستا محطتي أتوبيس ..؟! فلنمشهما).

قلت ذلك وقد كانت نيتي ترمي إلى أن نمشي فلا نكاد نصل، يا ليتنا لا نصل.. فقالت :

- (هيَّا .. هيَّا .. حتى لا نتأخر).

قال الرجل :

- (عادةً لا أؤجر دراجاتي البخارية إلا لمن كان حاملًا لبطاقة شخصية، ولكن يبدو عليكما أنكما رجلان حاملان للمسؤولية، وعلى أي حال ؛ فخمسة جنيهات تكفي أن تكون تحت الحساب).

نقدت الرجل ما طلب، وسحبنا الدراجتين، ولا يزال صديقي مترددًا يقدم رجلًا رغبةً في رغيبةٍ، ويؤخر أخرى رهبةً من الخواتم. أدرت مفتاح دراجتي، وأهويت بقدمي ليدور بها المحرك عدة مرات حتى انتظم دورانه وعلا صوته فأخذتني هزة النشوة للانطلاق، قام صاحبي بما به قمتُ؛ فقلتُ:

- (هيَّا .. هيَّا .. سنطير حتى ميدان باب الشعرية ثم نعود، وإن سمح لنا الوقت واتسع نعاود الرحلة مرة أخرى).
- (أخشى أن نتأخر).

- (سنأخذ شارعي الخليج المصري وبور سعيد لنقطع بهما باب الخلق وبين السورين ثم ندور بميدان باب الشعرية لنأخذ الطريق ذاته في اتجاه العودة، وأمامنا أكثر من ساعة ونصف، يمكنك أن تكرر فيها الرحلة عدة مرات دون مخافة التأخير، هيَّا .. هيَّا .. حتى لا نتأخر).

قالت – وهي تدفعني بيمناها كي أجلس جوار السائق - :

- (كلما ذهبنا أسرع كلما أدركنا مبكرًا فنتفادى الزحام ومساوئه).
- (ولكن فِيْمَ العجلة ؟ الساعة الآن الثامنة، ولن يكون الأمر قبل التاسعة).

- (كما قلت لك : حتى نتفادى الزحام ومساوئه).
- (ولكننا بهذا سنكون هناك وحدنا).
- (إن يكن، ننتظر قليلًا لنغادر مسرعين خيرًا من أن نتأخر وندخل في صخب الزحام).
- (ليكن ...)
- (أخائفٌ ..؟! لا تتظاهر بغير ذلك فهذا طبيعي).
- (لا أخفيكِ سرًّا ؛ فأنا خائف).

وخرجت من فمي (خائفٌ) كأنها تصدر من غورٍ بعيد، وقد صرَّحتُ بتخوفي المفتعل والمختلف عن حقيقة مخافتي، بينما عيناي ترقبان انفلات المباني ومعالم الطريق عن يمين السيارة وأنا أتمنى لو أني أمسك بتلك المعالم وهاتيك المباني حتى لا تنفلت مني، وكي لا ينفرط معها الزمن فنبلغ وجهتنا.

وانطلقنا في صباح القاهرة وبكورها حيث الشوارع لا زالت تتمطَّى في نومها، والمحال لا زالت عيون بعضها نائمةً، وبعضها آخذٌ في جلي عينيه بيديه يحاول القيام بينما نسيم البكور المفتقد في شهور الصيف يعانق صدورنا ويداعب جفوننا.

إن لحظات النشوة قد لا تعدلها أعمارٌ بطولها، وحينما تبلغُ لحظةَ النشوة وذروتها ينتابك شعورٌ بفيضٍ من السعادة يهون معه العمر كله، وتسقط فيه كل تكاليف الحياة.

فَرَدْتُ ذراعيّ في حركة بهلوانية صبيانية تاركًا مقود الدراجة، وأنا كطائرٍ يطير بجناحيه، وحاول صديقي أن يقلدني فاضطرب مقود دراجته في يده فعاود الانقضاض على المقود بكلتا يديه مخافة الوقوع فضحكت ضحكة مدوية غالبت خجله فغلبته حتى شاركني الضحك.

قالت – وهي تجذبني من فراري وسط ذوبان المباني في عينيّ وانصهارها في تنُّوْرِ الزمن - :

- (الخوف أمرٌ طبيعي، حتميٌّ إلا على الفاشلين).
- (مممم ... آآه..)
- (لقد فكرت أن أذهب بمفردي أو أن أسبقك إلى المدرسة حتى أرحمك من ذلك الشعور بالخوف).
- (ماذا ..؟! لِمَ ..؟!، وتتركيني أتقد في نار الاضطراب..؟!)
- (لهذا أشفقت عليك فعدلت عما كنت أنتوي).

وقفت السيّارة في تقاطع علي باشا إبراهيم والشيخ ريحان مع الخليج المصري فشملنا صمت الانتظار.

قلت - وقد بدأت أشعر بجفاف حلقي من العطش، ويبدو أنه كان لقلقٍ أغالبه بداخلي - :

- (ما رأيك في أن نشرب مشروبًا باردًا على إحدى المقاهي ؟)
- (والوقت ؟)
- (لا تخف)
- (ولكننا سنضيع أجرة الدراجتين جلوسًا بدلًا من أن نطير بهما!).
- (عشر دقائق أو ربع الساعة لن تضيرنا ؛ فالغرض هو أن نُسّرِي عن أنفسنا).

أومأ صديقي، وكنا قد بلغنا باب الخلق فعرجنا على إحدى مقاهيه، ولا أخفي زهوي وازدهائي حينما كانت ترقبنا عيون الجلوس ونحن ننزل عن صهوتي دراجتينا.

قالت - في تنهيدة وزفرة ظفر- :

- (ها .. أخيرًا قد وصلنا بعد انتظار غير مُبَرَّر في ذلك التقاطع الملعون)
- (آه ..فعلًا .. فعلًا، فقد انتظرنا طويلًا )
- (أكاد أجزم أن ضربات قلبك الآن تتسارع وتكاد أن تصرعك)
- (أكيد).
- (ما زال أمامنا متسع، هيّا نشرب مشروبًا باردًا )
- (هيَّا .. هيَّا)

كان ذلك حلًا عبقريًا، ولكنه كغيره مؤقتًا، حينما يزول أثره تعاودني نوبة التوتر والاضطراب، فها قد أصبحنا أمام المدرسة وجهًا لوجهين.

قال - وقد بلغنا رصيف مسجد الشعراني فتوقفنا حذاءه نخطط لوجهتنا وقد أطفأنا محركيّ الدراجتين:

- (ها قد وصلنا ميدان باب الشعرية، فهيّا بنا نعاود كما وعدتَ).
- (لو رحتُ أصنع للخوف يوما تمثالا فسأضعك أمام عينيّ)
- (ولو رحتُ أصنع للتسكُّع والتصعلك واحدًا فلن أجد غيرك).
- (ما زال أمامنا ساعة بأكملها والمسافة كما رأيت لم تأخذ ربع الساعة).
- (نحن لا نضمن طريق العودة كما ضمنّا طريق المجيء).
- (إذن ؛ فهيَّا بنا).

شرعنا في إدارة المحركين فبدار محرك دراجة صديقي بينما لم يَدُرْ محرك دراجتي، وبعد محاولات عدة

باءت بالفشل، بدأت أبخرة القلق
تتصاعد لأذهاننا.

قالت – وقد انتابتني حالةٌ من حركة
سينمائية بطيئة السرعة أثناء وقوفنا
أمام الكشك نتناول المرطبات :
- (لقد بلغت التاسعة إلا الربع،
وأنت تشرب كالعجوز، هيَّا...)
- (آه .. لقد أوشكت على
الانتهاء، بل لقد انتهيت ..).
وضعت الزجاجة الفارغة في صندوق
الفوارغ في حركة السلحفاة، ثم نقدت
الرجل ثمن الزجاجتين في حركة
البخيل، وكنت قد قررت في لحظة
أن أسرع فأسبقها بالدخول فأختفي
وسط الزحام وتجمع الطلبة وأهاليهم.

قال - ونحن نقف كالتائهين، وقد
وقعنا في حيص بيص، نضرب
أخماسًا في أسداس - :

- (ألم أقل لك ؟ ماذا سنفعل الآن ؟).
- (دعني أفكر).
- (هيَّا، اركب معي).
- (ونترك دراجتي لمن، وأين، ولمتى ؟).
- (نتركها وما يحدث ليحدث ؛ فسوف نفوّت ميعاد الامتحان).
- (وماذا نقول لصاحبها؟ سبقناها وستلحقنا؟! أمهلني لحظة للتفكير).

وشرعت عن سؤال عن ميكانيكي فدلَّني أحد المارة على أحدهم خلف المسجد في حارة برجوان فانطلقت إليه ولم أعقب على صاحبي إن كان تبعني أم لا.

قال معلن النتيجة - من خلف الميكروفون وقد بدا أنه قد بدأ في الإعلان قبل قليل - :

(عاصم الشبراوي .. 202)
وهنا .. في تلك اللحظة قد تقمصتني فكرة شيطانية.

قلت – وأنا أستحث صديقي على السرعة في قيادة دراجته - :

- (أريدك أن تطير حقًا، فلقد جاوزنا ميعاد الامتحان بربع الساعة).
- (أتظن أننا سنلحق بعد أن فات الأوان؟!)
- (نستطيع أن نبلغ المدرسة قبل أن يمر نصف الوقت حيث يحق لنا الدخول).
- (لا أظن فسوف نرجع الدراجتين للرجل، ثم سيستغلنا في مساومة على الوقت غير المتفق عليه).

طرت أستقبل أختي قبل أن تبلغ فناء إعلان النتيجة وأنا مادٌّ ذراعيَّ وأُمَوِّجُ بهما كالطائر مرددا في نغمة المغني :

- (عاصم السحرتي .. 202 .. 202 .. 202 )

احتضنتني، وقبلتني، وقفلنا راجعين نفرح الوالدين، وأنا لا أعرف ماذا سأصنع فيما بعد ذلك، فقد حصل زميلي وسميي (عاصم) على 202 درجة، وكنت قد قررت أن أنتحل شخصيته بعضًا من الوقت، ولم لا أنتحل صفته؟ صحيح هو شبراوي وأنا سحرتي، ولكن كلٌّ منّا عاصم، فَلِمَ لا ؟

قلت - وقد بلغنا المدرسة بعد أن فاتنا نصف زمن الامتحان - :

- (سنتسَوَّر السور ثم نبكي ونتباكى حت يدخلونا )
- (أتظنهم يفعلون ؟ )
- (غالبًا ؛ وَلَمَ لا ؟ )

- (ولو أدخلونا هل سيسعفنا الوقت).
- (المهم أن ندخل فنرسب فشلًا بدلًا من أن نرسب غيابًا، فقد نبرر الأولى بينما لا نستطيع أن نبرر الثانية).

قلت لأبي وهو يغمرني بفرحته مهنئًا:

- (أريد عشرين جنيهًا مكافأة على النجاح)

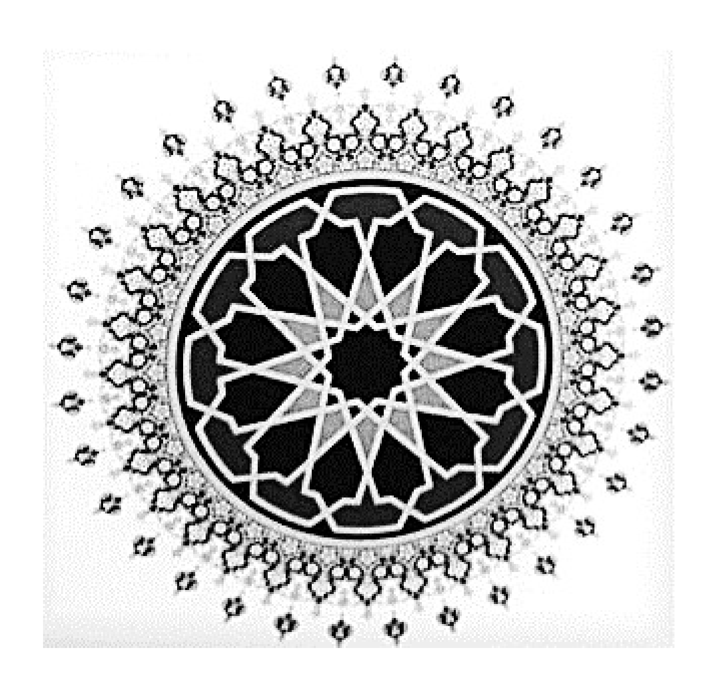
عشت يومين وثلاثة ليالٍ في رغد وسهر وسمر وفرح وطرب، وكأنني نسيت ...

دخل علي أبي في اليوم الثالث ووجهه تعلوه غبرة وإشفاق- قائلًا:

- (عادت أختك من المدرسة و قد ذهبت لإحضار شهادتك فقد وجدتك راسبًا)

انهرت متباكيًا متسائلًا في استنكار، معترضًا على ذلك الخطأ المدرسي الحكومي الوزاري ؛ فأنا أحق بالنجاح من غيري، أنا المستحق لـ 202.

***************



# اللُهَاث

(يقوم الشعب بالثورة دون إدراك سبب القيام بها، وحينما يسوقه الحظ لإدراك ذلك السبب تكون الثورة قد انتهت منذ زمن بعيد).

غوستاف لوبون

ما بين (ساعة الحظ لا تُعَوَّض)، و (جَدّدي يا نفسُ حظَّك) استبْقتني صُحبتي ليلًا ساعة تلو أخرى، وما إن أهم لأغادر متعللًا بأن لدي صباحًا صداعًا شديدًا وهو الاجتماع ربع السنوي لمقارنة المحقق بالمخطط حتى يستبْقوني قائلين : (نحن لا نرى بعضنا بعضًا إلا كل حين)، ومتهكمين : (ومن يدري لعلنا لا نلتقي مجددًا)، وفي لغة السكارى والمساطيل : (لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر). ظللت على هذا والجلسة ممتعة والسمر يُستلذ حتى انفض السامر وقد لدغ عقرب الساعة الأصغر الثانية ولدغ أكبرها الثلاثين فقلت :

- (حسبي الله ونعم الوكيل فيكم، سوف أذهب للعمل غدًا متعبًا مرهقًا أكمل نومي خلال الاجتماع).

أويت إلى فراشي وقد نيفت الساعة على الثالثة صباحًا فقلت : (لله الأمر من قبل ومن بعد) ورحت أغط في نوم المجهد حتى انتبهت على صوت جلبة عالية ففزعت إلى المنبه فوجدته قد جاوز الثامنة والاجتماع عند الثامنة والنصف فحتى أتجهز وأركب الطريق وأصل لمقر الشركة وأجد مناخًا للسيارة فلسوف أدرك الاجتماع بعد التاسعة والنصف على أمثل تفاؤل.

دخلت في ملابسي دخولًا وتدحرجت على سلالم المنزل مسرعًا، نظرت في الساعة فوجدتها التاسعة إلا عشرة دقائق فانزلق أمام عيني شريط من مشاهد قيادة السيارة وازدحام الطرق وانفعالي وتعجلي فوقوعي في صدام فشجار وأخيرًا بحث عن مكان للإناخة، عندها عدلت عن فكرتي وقررت اتخاذ تاكسي. أكملت نزولي انزلاقًا وفتحت باب العمارة فوجدت أناسًا يهرولون وشبانًا تجري ونساء وفتيات يحثثن الخطا فقلت يبدو أن هناك حادثة أو شجارًا فمر البواب بجانبي فسألته :

- (ما الأمر ؟)
- (سوق السنتر ..)
- (وما به ؟)
- (سلع مدعومة بتخفيضات)
- (سلع ؟ مثل ماذا ؟)
- (أناس يقولون سكر، وبعضهم يقولون زيت، وآخرون يقولون أرز، إلا أنه يبدو أن الأعداد هائلة والازدحام على أشده والطوابير ممتدة متصلة فأنا منذ أكثر من ساعة لم ألمح أحدًا عائدًا بزجاجة زيت أو كيس سكر أو حتى كيس أرز).

أخذت في طريقي قاصدًا الطريق العام لانتشال سيارة أجرة للعمل وما زالت جماعات من الناس يجرون ويهرولون ويحثون الخطى زرافات ووحدانًا وهم يحومون حولي ويحكون أكتافي يمينًا وشمالًا وقد دفع ثقل الهواء لمرور روائح عرقهم المختلفة خلاله، وما إن أعزف كعادتي عن معرفة أسباب الازدحام

إلا أن الأمر غير العادي يدفعني بفضولي لمعرفة ما يجري فانتخبت شابين لطيفين يبدو عليهما دماثة خلق وحسن هيئة لأسألهما :

- (فضلًا ؛ هل تخبرانني بما يحدث ولماذا تجريان مع القوم؟)، فقال أحدهما :
- (ثمت وحدات إسكان للشباب المقبلين على الزواج ، تُخَصَّص بمبنى إدارة الحي )، إلا أن الآخر قاطعه قائلًا :
- (لا، بل إن إدارة الحي لديها وظائف لحديث التخرج تم تدبيرها مع بعض الشركات)،

ثم قالا في صوت واحد على غير توافق بينهما :

- ( ألن تذهب؟ لعلك تظفر بأيهما ؟) ؛
- ( لا ؛ فالحمد لله أنا لدي الا ثنين – مأوى وعمل).

مضيتُ حتى انعطفتْ خطاي لأبلغ ناصية الطريق العام فألفيت جاري المهندس الزراعي علاء فكري فقلت له :

- ( أعندك تفسير أو خبر يقين عما يحدث ؟) ؛ فقال :
- ( نعم عندي ؛ فجهاز مشروعات الشباب يمنح قروضًا حسنة بدون فائدة تسدد على سنوات ممتدة لأي شابٍ يتقدم بمشروع مجدٍ، وإن أردت أرضًا تستصلحها فذلك أيسر ولكنه كما تعلم يحتاج بعضًا من رأس المال، أظن أنك كان لك حلم قديم في أن يكون لك أرض تمتلكها وتزرعها وتفر إليها من صخب الحياة)، قلت :

- (نعم، ذلك ما كنا نبغ، ذلك كان حلمًا لي وما زال يراودني ولعله يرحمني من ساقية العمل التي أدور فيها يوميًا معصوب العينين واضعًا نير الحياة بأثقالها على كتفي، أحق ما تقول؟ )
- (نعم، وأنا زعيم بما قلته لك، فَلِمَ لا تأتي وتجرب حظاً، طالما تزعم أنك تفتقده، أما الآن فليس لك حجة، وغدًا لن يكون لك فيه حيلة فامض بنا).

وقفت لحظة أفكر في العمل والاجتماع وما سوف يحدث لو لم أذهب ثم عقدت وعزمت على الذهاب قائلًا لنفسي :

- ( لعلك كنت مريضًا، والعمل مستمر غدًا وبعد غد وكل غد، أما تلك الفرصة فقد لا تتكرر مرة ثانيةً، أو لا تُكَرَّر مرةً أخرى بالمرَّة).

ثم قلتُ لرفيقيّ :

- (هيا بنا).

ومضينا سائرين ثم نظرنا إلى بعضنا بعضًا نظرة ابتسام ثم أخذنا في حركة واحدة على نية الهرولة، فالجري، فالركض، فاللهاث....

*************

# كرة وراء

# صولج الأفلاك

فَيا وَيحَهُم هَل أَحَسّوا الحَيا

ةَ لَقَد لَعِبوا وَهيَ لَم تَلعَبِ

تُجَرِّبُ فيهِم وَما يَعلَمو

نَ كَتَجرُبَةِ الطِبِّ في الأَرنَبِ

سَقَتهُم بِسُمٍّ جَرى في الأُصو

لِ وَرَوّى الفُروعَ وَلَم يَنضُبِ

وَدارَ الزَمانُ فَدالَ الصِبا

وَشَبَّ الصِغارُ عَنِ المَكتَبِ

وَجَدَّ الطِلابُ وَكَدَّ الشَبا

بُ وَأَوغَلَ في الصَعبِ فَالأَصعَبِ

وَعادَت نَواعِمُ أَيّامِهِ

سِنينَ مِنَ الدَأَبِ المُنصِبِ

أحمد شوقي

انتحيت وصديق مقعدين على حَيْد إحدى المقاهي بضاحية المعادي على إثر موعدٍ قد ضُرب بيننا. كانت الليلة ليلةً خريفية نوفمبرية تمتاز بما يمتاز به الخريف عامة ولياليه خاصة من مسحة حزن وغمام يثير في النفس غيومًا تبدو على وجوه الناس، ومن صُفْرة تبدو في الجو تورث في الصدر حسرة على صيف مفقود وشتاء مُفتقَد. تتسم تلك الفترة من عمر العام بهواء لطيف وريح خفيف ونسيم طلق عفيف إلا مما يُثار حولهن من غبار تثيره الأشجار في موسم تخلع فيه أسمالًا بالية فتتعرى للشتاء ثم ما تلبث أن ترتدي أردية جديدة يجلبها لها ربيع مُنتظر. ذلك بعضٌ مما يضيق بوصفه صدري ولا ينطلق بصفته لساني.

قال صاحبي في نبرةٍ يشوبها تهكُّمٌ معتاد :

- ( أراكَ منتشيًا، لك الحق كله فقد حلَّ فصلك، فاهنأْ به)،

ثم تغيرت نبرته ليقول :

- ( ما رأيت أحدًا يحب فصل الخريف إلا أنت. علامَ تحبه؟ وفيم تحبه؟ ألم يكفك ما فيه؟ )

فضحكت من نبرته التي تتميّز من الغيظ، وأجبته بما يزيد تميزه وغيظه :

- ( أحبه، ولم لا أحبه ؟ وما الذي في غيره وليس فيه ؟ بل فيه ما ليس في غيره)

تململ صاحبي من سفسطتي المتعمدة التي ليس لها غرض إلا إثارته فأخذ حبةً من الكريات المتساقطة من الشجرة وقذفها بعرض الطريق وهو يقول :

- ( عُدنا بما لا يفيدنا لما لا يفيد، وما الذي فيه – يا سيدي – وليس في غيره ؟ يكفيه ويكفيك اسمه).

ثم بدأ حوار البنج بونج فتبارينا – أقول ليرد واحدة بواحدة، وهذه بتلك :

- (المُسَمَّيَات قبل الأسماء) .
- (الأسماء سمات توضع على الأشياء كي تعرف بها).

- (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ).
- (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ).

- (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ).
- (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ).

- (قُلِ اللَّهُ).
- (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا).

- (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ).
- (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا).

- (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَم).
- (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ).

- (الأسماء ظاهر خارج لولاه لما كان هناك باطن خافٍ يُدرك).
- (فليس قيمة الأشياء في أسمائها، وإنما العبرة بمسمياتها يا جاهل).

فأعقب متهكمًا :

- (لو كان كما تقول - يا أحمق - لَمَا قالوا : " لكل امريء من اسمه نصيب").
- (لو كان الأمر كذلك لكانت شركتك به أولى).

فصمت وغَضَّ على أساه ؛ فأحسست أني قد أسأت إليه وأخذني النقاش بحميته إلى حيث ما لا يجب أن أخوض فيه، فحاولت التعمية عما قلت، والتسلية بالخوض فيما بدأنا فيه قائلًا :

- ( حتى لو كان الخريف من الخَرَف، فلو سُئلتُ عن أي الفصول أحبَّ إليّ لأجبت : الخريف، وهو ليس كما يظن الناس به، أو يشعرون نحوه بالحزن والقتامة ؛ فهو في مصر – عندي - أفضل الفصول - لا كالصيف حارٌّ فيَحرِق، ولا كالشتاء مُمْطِرٌ فيُغْرِق، ولا كالربيع مُتْرِبٌ فيَخْنِق ؛ فهو الاعتدال كله، أو كما يسمّيه الجغرافيون أحد الاعتدالين، وقد

يَفْضُل الاعتدال الآخر - أي الربيع - فهو خِلوٌ من الخماسين ورياحها الصفراء. أمّا ما يصيب الناس فيه من أسىً فهو لما يرونه فيه من ذبول للشجر وورقه، وإن كان سرًّا من أسرار جماله، فهو كَمَنْ يخلع أرديةً بالية استعدادًا لأردية أبهى في وقت قريب. وهو وإن رجحوا بكفة الربيع على كفته فلما يرونه في الربيع من أكسية الرياض والجنان، أولا يعلمون أن للحزن جمالًا كما أن للبهجة جمالًا ؟! فما أجمل الذبول أحيانًا في وجهٍ جميل!).

نضّد النادل ما طلبناه وشرعنا نحتسي الشاي والقهوة وفويق أرؤوسنا أغصانٌ لشجرة عظمى وهي بين تارةٍ وأخرى تلقمنا بما يتساقط علينا من كُريات ثمارها، تنقرنا بنقر لذيذٍ لاذعٍ كنقر الذكرى يُوجِعُ فَيُولِع، ويجرح ولكنه لا يذبح، ويقدح ليلسع لا ليحرق.

وكأن المشهد قد أوحى لكلينا بما ارتئينا فأخذ صاحبي حبةً من الكريات المتساقطة وقذفها بعرض الطريق وهو يقول كمن يملي على أحدٍ :

- (عجيب غريب أمر الإنسان، كنت – وأنا صغير – أتوقّى لطيّ السنين حتى أكبر ؛ فقد كنت أظن أنني أسير طفولتي، حبيس صباي، وأن الحرية كلها مودعةٌ في الكبر، وأن زغب جناحيّ ينتظر الأيام والأعوام حتى يستحيل ريشًا أطير به خارج قفص الصِّبا. كنت أجد المحاذير تحوطني طفلًا من كل اتجاه، بينما الشباب والرجولة حالة خارج سياج

الأسر والمحذور. حتى وجدتني أبله – فلم تكن الحرية كلها إلا في الطفولة والصِّبا إذ ليس ثَمَّتْ أيَّة محاذير، وإنما هي عيون تحوط لتحرس، وتجحظ لتحمي. ليتنا نظل هناك أطفالًا أنقياء برآء، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل).

ربت على ركبته، وقلت ساخرًا حتى أُسَرِّيَ عنه :

- (هوِّنْ عليك يا صديقي، فإنك طيلة حياتك أحمق أبله – طفلًا وكهلًا).

أكمل كلامه - لا مباليًا بما قلته وبما وصفته به - كأن لم يسمع :

- (جَمَعَتْ نَزيلَي ظَهرِها مِن فُرقَةٍ

كُرَةٌ وَراءَ صَوالِجِ الأَفلاكِ

نَمشي عَلَيها فَوقَ كُلِّ فُجاءَةٍ

كَالطَيرِ فَوقَ مَكامِنِ الأَشراكِ

ما أحمقنا – حقًا – حينما نَتَمَنَّىْ أن نكون طيرًا يظن نفسه حرًّا طليقًا، يطير فوق مَكامِنِ الأَشراكِ وهو لا يدري).

- (ها أنت ذا قد توصلت إلى أنه حتى الطير الذي نظن أنه يطير حرًّا طليقًا فإنما يطير فوق فِخاخٍ منصوبةٍ له وهو لايدري، "كيف ترى الطير تحسبُه تُرِكَ، وهو في شَرَكَ، استهْدِفَ فما نجا حتى هلك").

- (لسنا وحدنا ؛ فحتى كرتنا الأرضية التي نعيش عليها ليست سوى كرةٍ ككرة (البلياردو) أو (الغولف) تتقاذفها صواجل الأفلاك ومضاربها).

- (إذن فما الذي يحزنك من شركة قد تَسَمَّتْ باسم كاذب حينما اتخذت (الكمال المطلق) علمًا عليها؟)

- (قد تقول ذلك لأنك تعمل في جهةٍ أو هيئةٍ حكومية).
- (كما قلت، هيئة، أي سمة ظاهرة، أي اسم دون مسمى ؛ فليس ثَمَّت فرق، في النهاية كلنا أَرِقَّاء، كلنا عبيد).

وكأن كلمتي أَرِقَّاء وعبيد قد وجعتاه، فاقشعرت قسمات وجهه كمن أصابه وخز وراح يكررهما بصوتٍ خفيض :

- (كلنا أَرِقَّاء، كلنا عبيد، أَرِقَّاء ... عبيد).
- (أي نعم، أَرِقَّاء ... عبيد، بمد حرفي المد. ولكن...).
- (ولكن ماذا...؟)
- (ليس ثَمّتَ جديد، هكذا الدنيا منذ الأزل، وهكذا ستظل، وإن تغيّرت الأسماء فقد بقيت المسميّات، وإن تبدّلت الألفاظ فالمعاني كما هي :

أُناسٌ كَما تَدري وَدُنيا بِحالِها
وَدَهرٌ رَخِيٌّ تارَةً وَعَسيرُ
وَأَحوالُ خَلقٍ غابِرٍ مُتَجَدِّدٍ
تَشابَهَ فيها أَوَّلٌ وَأَخيرُ
وَحُوِّرَ قَولُ الناسِ مَولىً وَعَبدُهُ
إِلى قَولِهِم مُستَأجِرٌ وَأَجيرُ

فلا تشغل بالك بما يشغل بالك فيما لا يفيد ومما ليس من ورائه جديد، أنت لن ترى خلاصك إلا في تحررك، ولن تتحرر حتى تملك، فإذا ملكت ملكك ما تملك إلا أن تملك نفسك ؛ فعِشْ حياتك كطفلٍ، وعَدْ صَبِيًّا كما تود دائمًا أن تعود).

شرد صاحبي قليلًا ثم راح يُصَدِّق على كلامي وهو لا يزال شاردًا بعدُ :

- (صدقتَ، لأعيشَ حياتي كطفلٍ، ولأعودَ صَبِيًّا كما أود دائمًا أن أعود).

*************

وفي صباح اليوم التالي وبينا صاحبي في طريقه إلى العمل يسير مفترًا، خائر العزيمة، وَاهِنَ القوى، خائر العزيمة، مُجْبَرَ الخُطَىْ، يُجَرْجِر ساقين محمَّلتين بأجوال من الرمال، يسحب رجليّه ويجرهما تحته جرًا كأنهما مثقلتان بغلائل حديدية من عهود الرومان، والشمس فوقه ترسل جدائل من ذهب مداعبةً وجهه وإصباحه، جاهدةً في التسرية عنه حتى يستقبل يومًا جديدًا ببعض من بِشر، ويغدو إلى عمله ولو ببعض من تفاؤل، ولكن...هيهات ؛ فما إلى ذلك من سبيل؛ فهو كما هو، وهي لا تنفك ساعيةً في مداعبته ما وسعها السعي، جاهدة حتى بلغها الجهد مبلغًا ـ وإذ بطفل يمضي إلى يومه الدراسي وهو لا يبدو عليه -كَجُلِّ الأطفال في سنه - أثرٌ لهندام، ولا بعض من نظام ...خرج قميصه متحررًا من طوق سرواله، واتخذ سرواله من ألوان الطبيعة والبيئة المحيطتين به ألوانا عدة؛ فها هي رمادية التراب، وذلك سواد الدخان، وتلك حمرة بقع الإدام، فعبّرت حياته في طيِّ لباسه أصدقَ تعبيرٍ عن لوحة يومه ؛ فكانت موجزةً...مكثّفةً، بسيطةً...ومركبةً، مباشرةً...ومُلْغِزَة.

مضى الطفل يحمل حقيبته مُدَلَّاةً من فوق ظهره وقد انفصم أحد عُلَّاقيها عن متنه الأيسر بينما بقي عُلَّاقُها الآخر متشبثًا بمتنه الأيمن وصاحبها لا يبالي؛

فهو مشغولٌ عنهما؛ بل هو مشغولٌ عما حوله بأُكْرَةٍ عَجْفَاءَ واهيةٍ يركلها تحته ركلًا.

لا يعبأ ذلك الطفل بمن يسير في الطريق حوله من الناس، ولا بالحقيبة التي يحملها على ظهره و،كأنما يريد أن يَتَخْلُصَ منها وهي تأبى، ويتخلّص منها وهي تَتَأَبَّى، كمن يسعى ليخلصَ من أوهامه وهي تملص منه، ويتخلّص من همومه وهي متعلقة به.

لا يعبأ الولد بمدرسته التي يذهب إليها؛ ولا يعبأُ بحقيبته التي يحملها على ظهره وقد كَلَّ بها متنه، بل ولا يعبأ بِكُرَتِهِ التي يركلها وكأنما يركل دنياه المُصَغَّرَةَ ولا يبالي...وكأنما يركل الكرة الأرضية الكبرى بقدمه الصغرى ولا يبالي.

وظل صاحبي يرقب الطفل عن كَثَبٍ، وظَلّت عينه ترنو إليه متعلقةً به مشدوهةً بحاله حتى واراه عن عينيه منعطفٌ صغير.

مضى صاحبي سائرًا يفكر في ذلك الطفل الذي استرعى نفسه ونبّه فيها شعورًا قد غفا مذ عرفها وصحبها.

لقد استطاع ذلك الطفل الصغير أن يوجد في نفسه منوالًا جديدًا يستطيع أن ينسج عليه قادم أيامه.

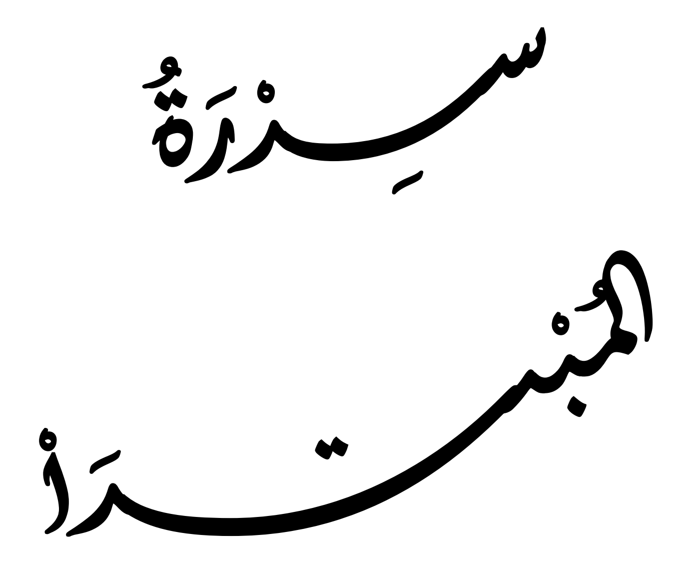
وراح يحدّث نفسه :

- ( ترى من علّم ذلك الطفل تلك الفلسفة ؟ هل هي تجارب حياته ؟ ومن لمثله وسنه بذلك تجارب، وأصحابها يحاولون ويستعصي عليهم ذلك.

هل ثَمّت من لَقَّنَهَ ذلك ؟ والله لا يفعل الآباء مع أبنائهم مثل ذلك؛ فهم يخشون عليهم أن يصابوا بلامبالاةٍ في تصريف أمورهم، وأن يرثوا عادة عدم الاكتراث بشؤون حياتهم. ترُى هل قُيِّضَ لي هذا الطفل الصغير حتى أنحو نحوه وأحذو حذوه ؟ وَلِمَ لا، وقد دَلَّ على قوم هدهد، وسبحان من خلق فقدّر، وقدّر فَهَدَىْ، وزاد في خلقه ما شاء. ترُى هل ستتبدل خرافة عوام الناس حتى تصير الدنيا محمولةً على قدم طفل بدلًا من قرن ثور ؟!).

وانثنى على حالته تلك يُحَدِّثُ نفسه وتحدثه، يسائلها تارةً فتجيبه، و يسائلها تارةً أخرى فلا تجيبه، وتسائله مرةً ويجيبها، وتسائله مرةً أخرى فلا يحير مع سؤالها جوابًا. ومضى وهو شارد عمّا حوله حتى عثرت قدمه بحجر صغير فركله دونما وعيٍ منه، ثم استأنف سيره يتحسّسُ نظراتٍ قد تطاردنه فتتعقبه من المارة، وانطوى في مسيره تغالبه ابتسامته ؛ إذ لم يستطع أن يكون الطفل ولا أن يتمثّل قالبه، ولكن ... فلا أقل من أن يحمل قلبه.

*************


سِيرَةُ
المُبْتَدَأْ

لا تَخدَعَنَّكَ اللحى ولا الصورُ

تِسعَةُ أعشار من ترى بقرُ

تراهم كالسحاب منتشرًا

وليس فيه لطالبٍ مَطَرُ

في شَجَرِ السروِ منهمُ مثلٌ

له رواءٌ ، وما له ثمرُ

ابن لنكك البصري

ما أطعم ثمر النبق وما ألذه، ما أحلاه، فما زالت حلاوته اللزجة تتزلج في حلقي منذ أيام الطلب والشدو والتلمذة وقت أن كان الباعة السَّرِّيحة يسرحون ويروحون حول مدارسنا بعربات الجر يحملون عليها صنوفًا محدودة محددة بعينها من تلك الفاكهة الفقيرة، وكانت العربة من تلك العربات مُقسَّمةً تقسيمًا منتظمًا يُحَلِّي البضاعةَ في أعين الصبية قبل حلوقهم : فمقطعٌ للتفاح الأخضر الكروي الصغير، وثانٍ للحرنكش، وثالث للدوم، ورابع للنبق، وأحيانًا أخرى مقطعٌ آخر للجميز. كان الباعة لا يغادرون مواقفهم حتى تفرغ عرباتهم بعد أن تفرغ سراويل التلامذة من نقودهم، وأكثر ما كان يستنفد نقودي هو ثمر النبق فقد كان بحقٍّ لا يُقَاوم، ولم أندم قط إن كنتُ أصرف مصروفي كله فيه مرارًا وتكرارًا، فقد كان يستحق ولم يكن غيره من الصنوف الأخرى جديرًا بذلك ؛ فقد كان التفاح دائمًا فجًّا وغالبًا عَطِنًا، و كانت مزازة الحرنكش غير مشتهاة لدي آنذاك، ولم تكن متعةُ الدّوم في أكله أكثر منها في ركله كُرَةً بعد أن تنحته الأسنان اللبنية والأضراس التي عاث فيها السوس من أكل الحلوى، ولم يكن الجميز حاضرًا دائمًا حتى يكون منافسًا. ولا أنسى حينما وقعت على صيد ثمين وكنز مكين حينما علم أحد أصحابي مدى كلَفي بالنبق فَأَسَرَّ لي أن لديهم شجرةَ

نبقٍ عظمى في حديقة بيتهم القديم، ووعدته بألا أُخْبِر أحدًا وأوفيت بالعهد قَسَمًا وأيمانًا، وكنت أستبق إليه يوم الجمعة فأمكث عنده - أو قل عندها - حتى نصلي الجمعة معًا، وذقت من ثمر تلك الشجرة نبقًا لم أذق مثله حتى اليوم حجمًا وحلاوة، وكان كثيرًا ما يحملني على أجنحة الخيال ويطوف بي في عالم الأطفال مُوْهِما إياي أن جَدَّه مدفونٌ تحت تلك الشجرة لأنها شجرة بِرٍّ ورحمة تزرع فوق مراقد الموتى ومشاهد الصالحين.

أخذتني شهوة الذكرى وحلاوة النبق عن ذكر ما كنت أنتويه فقد يكون الحديث متصلًا متشعبًا ومكانه هو ميدان السيدة عائشة، وهو محور قاهرة الأمس وفرعها المتشابك اليوم، ولا أعلم لِمَ سُمِّيَ ميدانًا فهو ليس دائريًّا ولا مربعًا ولا حتى شبه منحرف فهو في الحقيقة تقاطعًا بين طريق صلاح سالم وسكتي المنشية وصلاح الدين الغربي، ويبدو أنه لأهميته قد تجاوزوا فأطلقوا عليه لفظ الميدان إحقاقًا لأهميته فهو مرمى ومصب طريقين عظيمين من طرقات القاهرة : المُستراد (الأوتوستراد) وصلاح سالم وهو مسلك السالك لوسط البلد وقادم من جنوب القاهرة كما أنه مفرق مهم بين شرق القاهرة وغربها ومسلك للسالك شرقًا قادمًا من الغرب والعكس.

ولازدحام التقاطع فيه وقت أن كانت السيارات في القاهرة قليلة كان جسره الحديدي من أوائل الجسور البرية في مصر . ولحوادث هذا الجسر قصص وذكريات لذا أسموه بالجسر الأسود وجسر الموت ..إلخ حتى إنهم يقولون إن السيدة عائشة بنت الحسن الأنور – رضي الله عنهما - غير راضية

عن هذا الجسر لأنها مقبورة تحته فلن تهدأ حوادثه وكوارثه حتى ينقلوه من فوق جثمانها الشريف ويبنوا ضريحها في مكانه الصحيح.

تصطرع في الميدان مواقف المواصلات والسيارات المتعددة وتتوافد عليه طبقات وشرائح مختلفة من المجتمع المصري ؛ طلبة وعمال وموظفون وحرفيون ومهنيون وعمال تراحيل وربات بيوت وسيدات عاملات، حقيقة هو صورة صغرى للقاهرة الفائرة بازدحامها واختلافها واجتماعها في آنٍ واحد.

تقع أسفل هذا الجسر جنة صغيرة – هكذا كنا نراها – لا يتعدى طولها ثلاثين ولا عرضها كذلك من الأمتار، كانت في الأصل جزءًا من سجن قره ميدان الذي هدمه السادات في حركته للتصحيح وحوله إلى مركز للرياضة ومدرسة وخزان لمياه المدينة، وهي على فقرها من الخضرة الأرضية كالحشائش أو الخضرة العلوية كبضع شجرات من أنواع دنيا وعدة نخلات للزينة إلا أننا كنا نسميها صغارًا جنة العيد لأننا كنا نقصدها يوم العيد فنضرب البمب ببنادق الرش ونأكل الكشري ونشرب الاسباتس المثلجة ولم تكن الدنيا أيامها في عيوننا تساوي أكبر من ذلك. كانت زيارتنا لتلك الحديقة زيارة موسمية تقتصر على الأعياد وكم كنت أتلفت لرؤيتها من نافذة الحافلة وأنا بجوار والدتي حينما كنا نمر عليها لمامًا فكنت حريصًا على وقوع عيني عليها حتى تختطفني منها حركة الحافلة فملاعب الصبا ومراتع الطفولة ولهوها منحوتة هياكلها ورسومها في داخل الذاكرة.

حينما دخلنا المرحلة الإعدادية بات علينا الانتقال إلى المدرسة بالمواصلات فكانت الحديقة معبرًا ذهابًا وجيئة كما كانت محطًا وملاذًا للفارين من المدرسة وقت الدراسة لذا فقد توطدت علاقتنا بالحديقة أكثر من ذي قبل حتى كان طول مكوثنا بها وقت فرارنا يدفعنا أحيانًا لعمل البر فكنا نحضر بعض حبات القمح ونبدرها أسفل إحدى النخلات ونتعاهدها يومًا بعد يوم بالري والمراعاة حتى تثمر كلأ أخضر لا تضاهي فرحة نجاحنا بظهوره فرحة نجاحنا المحتوم آخر كل عام دراسي، وتطور الأمر حتى بتنا نفكر في أن نغرس شجيرة نتعاهدها كما نتعاهد القمح وأخذنا نتبادل الرأي فيما نغرس ولم أعدل عن رأيي في غرس شجيرة نبق أحقق بها حلم طفولتي . ولحسن حظنا فقد ساعدنا مدرس النشاط الزراعي بالمدرسة في الحصول عليها من إحدى المشاتل بنيل المنيل بسعر زهيد وعلمنا كيف نغرسها وأخبرنا أنها دائمة الخضرة وأنها سريعة النمو. وأخذنا نرقب نموها ولا نستبطئه، وشيئًا فشيئًا بدأ الواقفون بمحطة الحافلات يعرفوننا ويبتسمون لحماسنا ويثنون علينا وطوروا من ردود أفعالهم فأخذوا في النصح والإرشاد فتطوع أحدهم قائلًا:

- (إن أردتم نموها بسرعة فهناك تقاوي زراعية حديثة تسهم في سرعة نمو الزروع)، واستجبنا لنصحه فعجل بتحقيق حلمنا والذي كنا نتمنى أن يتوَّج بذوق أول ثمرة نبق من شجيرتنا الواعدة.

بنهاية المرحلة الإعدادية ودخولنا المرحلة الثانوية كانت الشجرة قد استوت على سوقها وأخذت زخرفها وازينت للناظرين بل وأثمرت للطاعمين إلا أننا

حرمنا ذوق أول ثمرة فقد أخذ الباعة الجائلون على سياج الحديقة ينهالون على الشجرة يتلقفون ثمارها الفج قبل الناضج واتخذوا منها مسندًا ومجلسًا ومنامة يقيلون تحتها، لم يزعجنا ذلك بل قد يكون أسعدنا أو أوهمنا أنفسنا أنه يسعدنا حينما كنا نَتَزَيّا بزي الصالحين الفانين في حب وخدمة غيرهم إلا أن ذلك لم يمحو أسفنا أو يؤسي من أسانا حينما كنا نشاهد بعضهم يبول في أصلها أو أطفالهم يقضون حاجتهم في ظلها أو يعلق بعضهم بضاعته في جذعها أو ينصب تحتها أحد الأفاقين نضد البكش والكوتشينة والبحث عن الصورة وكوب النرد وناهيك عما كنا نسمعه من عبارات:

- (شجرة ربنا ... شجرة الحكومة ... هل سيادتك محامي أم من البلدية ... وهلم جرّا).

*************

جاءت مرحلتنا الجامعية وانتشرت معها السيارات والمركبات وظهور طريقي المستراد (الأوتوستراد) والدائري واللذين كانا يظن أنهما سوف يخففان الحمل عن الميدان أى أنهما حقيقة قد زاداه فهما قريبان من الميدان فيتخذ الميدان معبرًا إليهما أو مصبًا لهما فكثر الباعة الجائلون أكثر من قبل وانتشرت مواقف المواصلات العامة والخاصة وصار المارة لا يرون من الحديقة شيئًا اللهم إلا أعناق النخيل والأشجار وكانت شجرتنا إحداهن؛ يا لها من مَلَكٍ في زي نبات فرغمًا عما يُفعل بها فهي لا تقابل السيئة إلا بالحسنة ولا يفتُّ فيها الهوى والهوان فهي مستمرة في النمو، آخذة في السموق، لا ينقص منها التهام ثمارها

بل يزيدها خصوبة وعطاءً فبرزت أكثر وأكثر وألقت بظلالها على السياج وحَيْدِ السبيل.

*************

قرأت ذات مرة أن الأمير أزبك أحد أمراء المماليك كانت له إقطاعية من الأرض تكثر بها المستنقعات فألقي في خاطره يومًا أن يحيلها حديقة غناء إلا أنه عدل عن فكرته حينما رأى أن تحتاج من العمر حتى تؤتي ثمارها عمرًا فوق عمره فلن يشهد ازدهارها، وبينا هو عائد إلى بيته في قليوب لمح رجلًا مسنًا يغرس فسيلة فابتسم سخرية منه وسأله :

- (ماذا تفعل أيها الشيخ ؟)، قال الرجل :
- (كما ترى أغرس غرسًا)، فقال له الأمير :
- (أما ترى أنك لن تبلغ منها شيئًا والنخل يحتاج أعمارًا فوق عمرك حتى يعطي) ، فقال الرجل :
- (إنما أغرسها لابني ولحفيدي من بعده ولابن سبيل لا أعرفه يمر بها فيستظل بظلها أو يطعم منها فيدعو لي)، هنالك عاد أزبك لخاطرته وأمر رجاله بزراعة أرضه فصارت من بعده حدائق غناء وجنانًا فيحاء تنسب إليه وتتسمى باسمه (الأزبكية). استطعت من تلك الحادثة بالكاد – فقد استوى عقلي أو كاد – أن أخلع عن نفسي ملكيتي للشجرة أو تبعيتها لي وأقنعت نفسي بل واتخذت ذلك عهدًا آليته على نفسي أنها ملك للناس جميعًا بمن فيهم أصحاب الفضل في غرسها.

ومن يومئذ ما إن ألمح شابًا ملتحيًّا في قميص أبيض قصير يصلي في ظلها حتى أبتسم في هدوء وقد تنفرج أساريري حينما ألمحة أخرى يأتم في فيئها اثنان أو ثلاثة وقد ألم بجمع من الشباب الجامعي يجلس تحتها وقد أخذتهم حمية الحوار والنقاش الجاد ثم وجدت ذات مرة المجموعتين مجتمعتين تحتها، وكان ذلك غريبًا واقتربت منتصتًا فوجدتهم يتناولون مسألة عجيبة فقد سمعتهم يتناقشون فيما يطلقون على الشجرة من أسماء فابتسمت لما ذكرني من مسائل الترف الفكري التي كانت تنتشر بين المثقفين والمتفلسفة، قال أصحاب القمصان البيض :

- (نسميها "السرحة الزكية" أو "الشجرة الطيبة" : اسم يدل على ثقافتنا وموروثنا) فقال الآخرون محاولين مداهنتهم :
- (بما أنها شجرة نبق فما رأيكم لو أسميناها : "سدرة المبتدا" ؟) عندها تبادل الملتحون النظرات فقال أحدهم ساخرًا متهكمًا :
- ("سدرة المبتدا" والمار تحتها – إن شاء الله – يخترق أم يحترق ؟) وانبرى آخر منفعلًا :
- (هذا تناص يخالف العقيدة فهو تشبّه بسدرة المنتهى، والإصرار عليه قد يخرج من الملة) فقال أحد الشباب :
- (ليس ثمت تناص فهذه سدرة حقًا وهي من سدر الأرض فلم لا نقتدي بها في الإيثار وحب الخير والعطاء ونكران الذات فنجعلها مبتدا لبدايتنا نحو الحق والخير والجمال ؟).

كلمة من هنا ورد من هناك احتد النقاش وبدأت تظهر انفعالات قسمات الوجوه ثم تلتها إشارات الأصابع فالأكف والأيدي والتلويح في الهواء وانفعل أحدهم فضرب على ساق الشجرة بقبضة يمينه، أشرف النقاش الذي بدأ ترفًا فكريًّا في مسألة فرعية أن يستحيل إلى عراك حتى تدخل المارة ومنتظرو الحافلات وحاولوا التوفيق والمصالحة فاستفهموا بدورهم عن سبب الخلاف فرجّحوا كفة السرحة ورجّح آخرون كفة السدرة وأتى آخرون مبتسمين بمقترحات أخرى وتحول المشهد لحوارات جانبية متعددة واختلافات بينية بَيِّنَة واستخدمت الاستدلالات والمصادر الموثقة كل على حسب ثقافته حتى بدا لي أن الأمر قد خرج عن مقصده وغرضه فمضيت لأمري وحاجتي.

يبدو أن السدرة أو السرحة قد تحولت إلى منتدى عام فقد رأيت يومًا أناسًا آخرين يتجادلون تحتها ورأيت صبية يتشاجرون تحتها يشير كل واحد إلى الآخر بقوله :

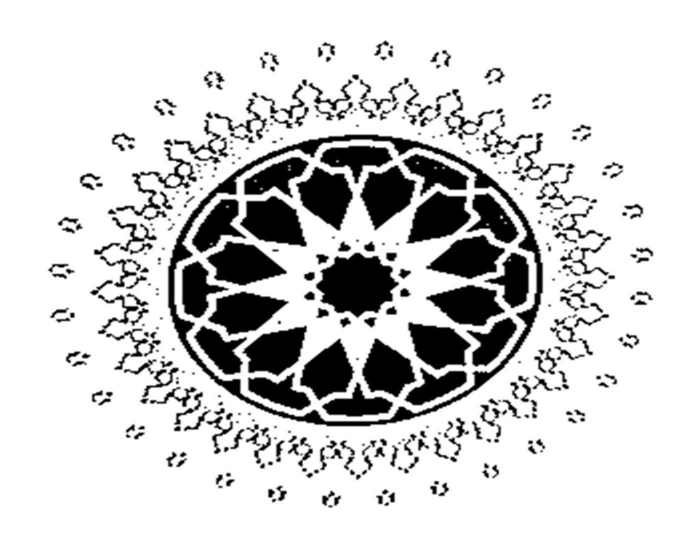
- (لقد قلتم كذا) ويقول الآخر :
- (بل أنتم الذين قلتم كذا وكذا) ، وأنا من الأمر في غاية العجب فلم يكن يعنيني إلا أن يتعهدوها بالري والسقيا حتى تنمو وتزدهر ويأتي اليوم الذي تسجل فيه كشجرة معمرة من شجرات مصر فلم أشهد واحدًا منهم قط قد رواها بل ما شاهدت إلا متسلقًا لقطف نبقها أو ملقيًا لبقايا الطعام تحتها حتى المدخنين كانوا يزعمون أنهم ينفثون دخانهم في أوراقها وأغصانها

حتى تمتصه وتخرجه لنا هواءً نقيًا وتحيله لنا ورقًا أخضر وثمرًا حلوًا وينسون أو يتناسون أنهم يلقون بأعقاب سجائرهم في أصلها.

زاد الأمر عن حده وضاق عن قده حتى إنني فكرت أن أخرج عليهم بصحابي نكاشفهم بأمر تلك الشجرة وأننا الأحق بها دونهم وأنهم إن أرادوا تسميتها فنحن الأولى بذلك ونستشهد على ذلك بشهادة الشهداء من الأحياء الذين رأونا إبان غرسها، إلا أنني عدت فقلت :

- (أنا إن فعلت فقد صرت مثلهم ، كما إننا وأصحابي لسنا من تفردوا بذلك الفضل فلقد نصحنا المارة والعابرون وشدوا على أيدينا ، وربتوا على أكتافنا نصحًا ومؤازرة ومددًا ؛ فلا أنسى مدرس النشاط الزراعي ولا رجل المشتل لتقاويه الجهنمية ولا من رأيتهم من الباعة ممن سقاها ورواها، إذن فكلنا شركاء فيها، ولكنها صارت بنا مثلًا فأصبحت شيئًا فيه شركاء متشاكسون لا سلمًا بيننا ) وتذكرت قول الشافعي : (وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلي منه حرف) حتى قال العلماء : (ولقد استجاب الله لدعوته فترى الناس وأهل العلم يقولون : قال الرافعي، قال النووي، قال الجويني ...، وهو على هذا فضله محفوظ معروف) ، لذا فقد تمالكت نفسي وكظمت غيظي وتذكرت الأمير أزبك وقصته وتذكرت معها قول الشافعي ودعوته وما آليته على نفسي من عهد.

*************



# لفتةٌ إثر قراءة

ليس إصدار (التوابل الشريفة) بالفاضل عندي ، فضلا عن أن يكون الأفضل ، بل هو المفضول لديّ ، وقد يتصدر المفضول مع وجود الفاضل. ولم تكن مجموعة (التوابل الشريفة) إلا بمثابة إزالةٍ للحاجز النفسي عندي تجاه النشر ؛ فقد كنت أتردد فيه ترددا طويلا متصلا ، يغالبني هاجس رهبة النشر فيغلبني لما كنت أنتويه دوما من أن الفاضل والأفضل لم يأتيا بعد ، وأنني يجب أن أشرع في النشر حينما يجتمع لديَّ شيءٌ جديدٌ كل الجَدة ، لم يُسبق فيه مثله ، ولم يُتبادر إليه مثيله. كذلك كانت تأخذني الحمية بألا أقبل أن يتدخل ناشرٌ ما فيما أكتب ، أو يتصرف فيما أنظم - حتى ظهرت خدمة الطبع عند الطلب فهَوَتْ معها جُلُّ حُجَجي ، و انطفأت عندها كلُّ حِمْيَتِي وخَبَتْ معها كل حَمِيَّتِي. عندئذ انتخبت مجموعةً مما لديّ تجمع بين قوالب مختلفة كومضة الخيال(Flash fiction) ، والأقصوصة ، والقصة القصيرة ، والنوفيليت (Novelette). وعمدت في اختياري إلى تنوعها في الزمان والمكان ، وفي اللغة والأعيان ، ، مع تنويعات في السرد على لغة مختلفة ، مع المحافظة في بعضها ، والتجريب شكلا في بعضها الآخر.

محمد حمعة

